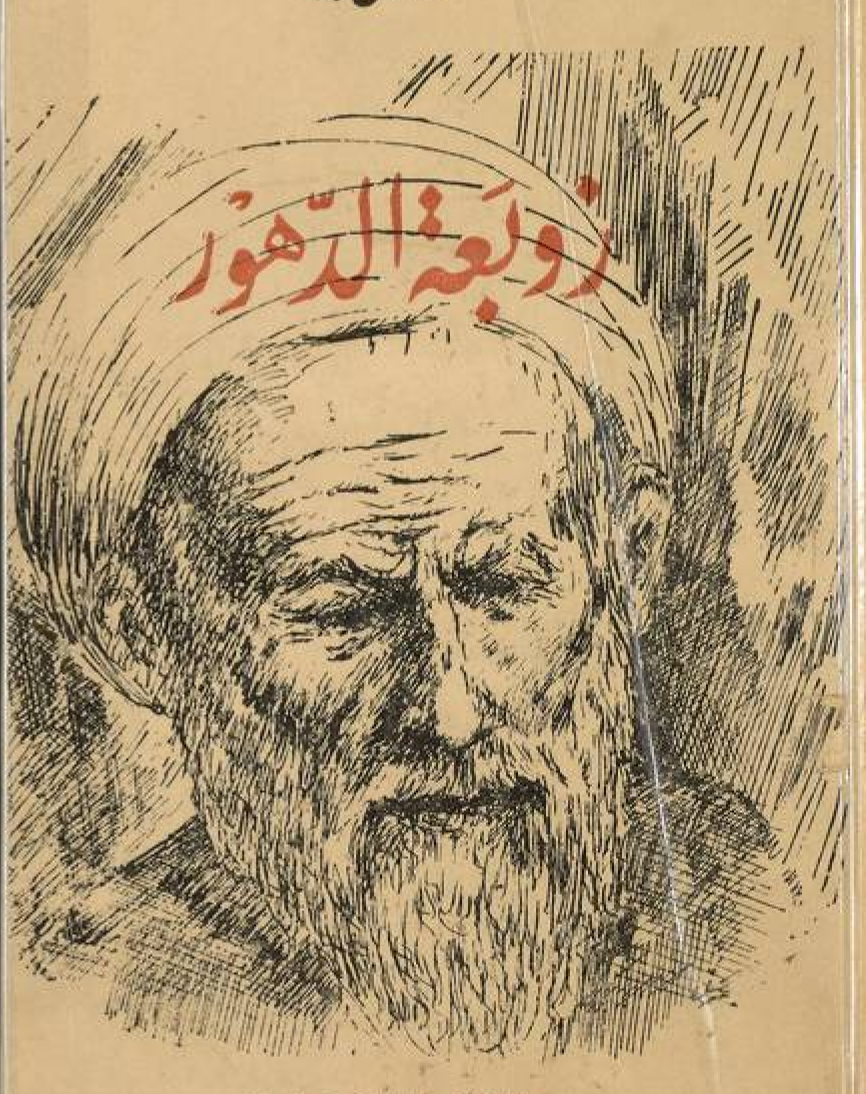
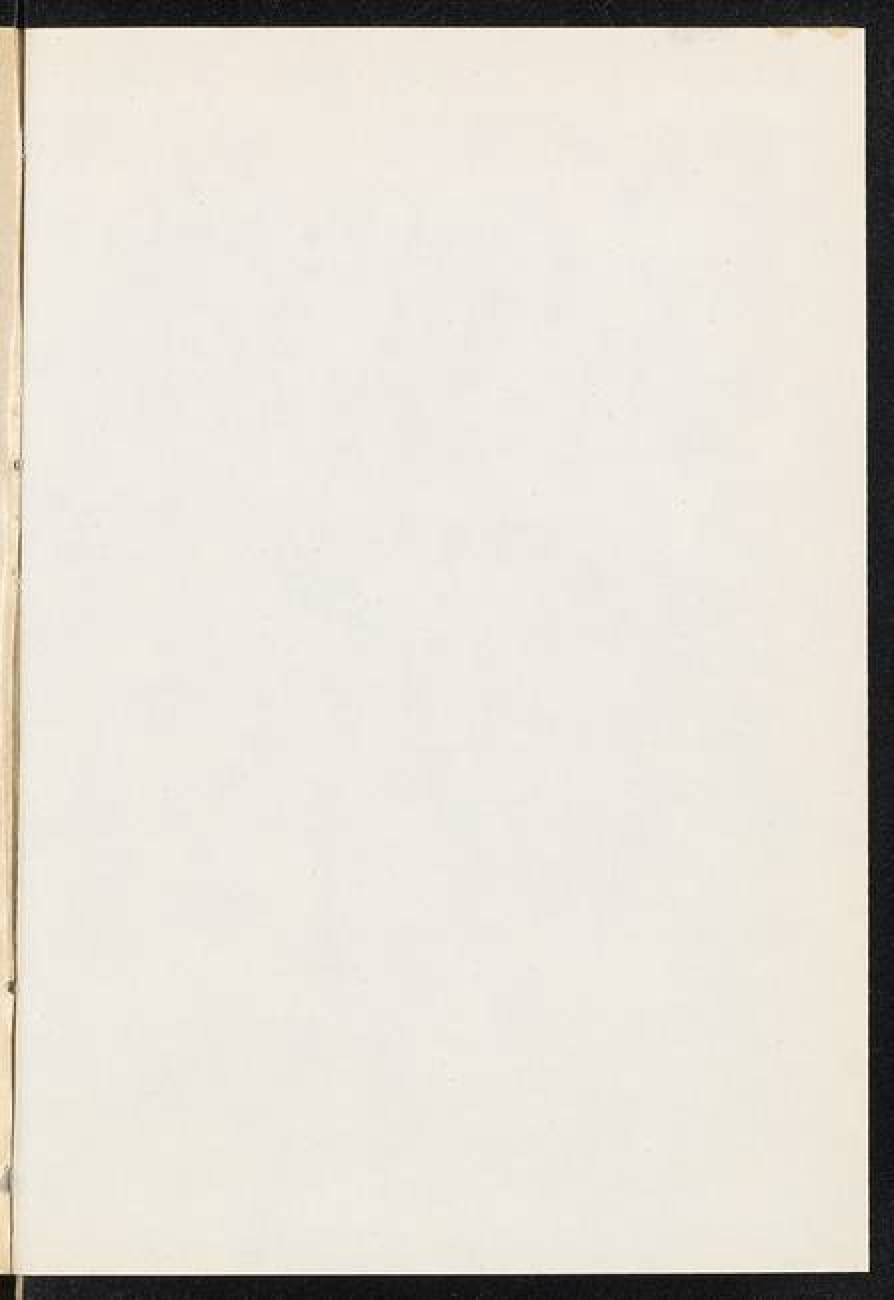
مارون عبود

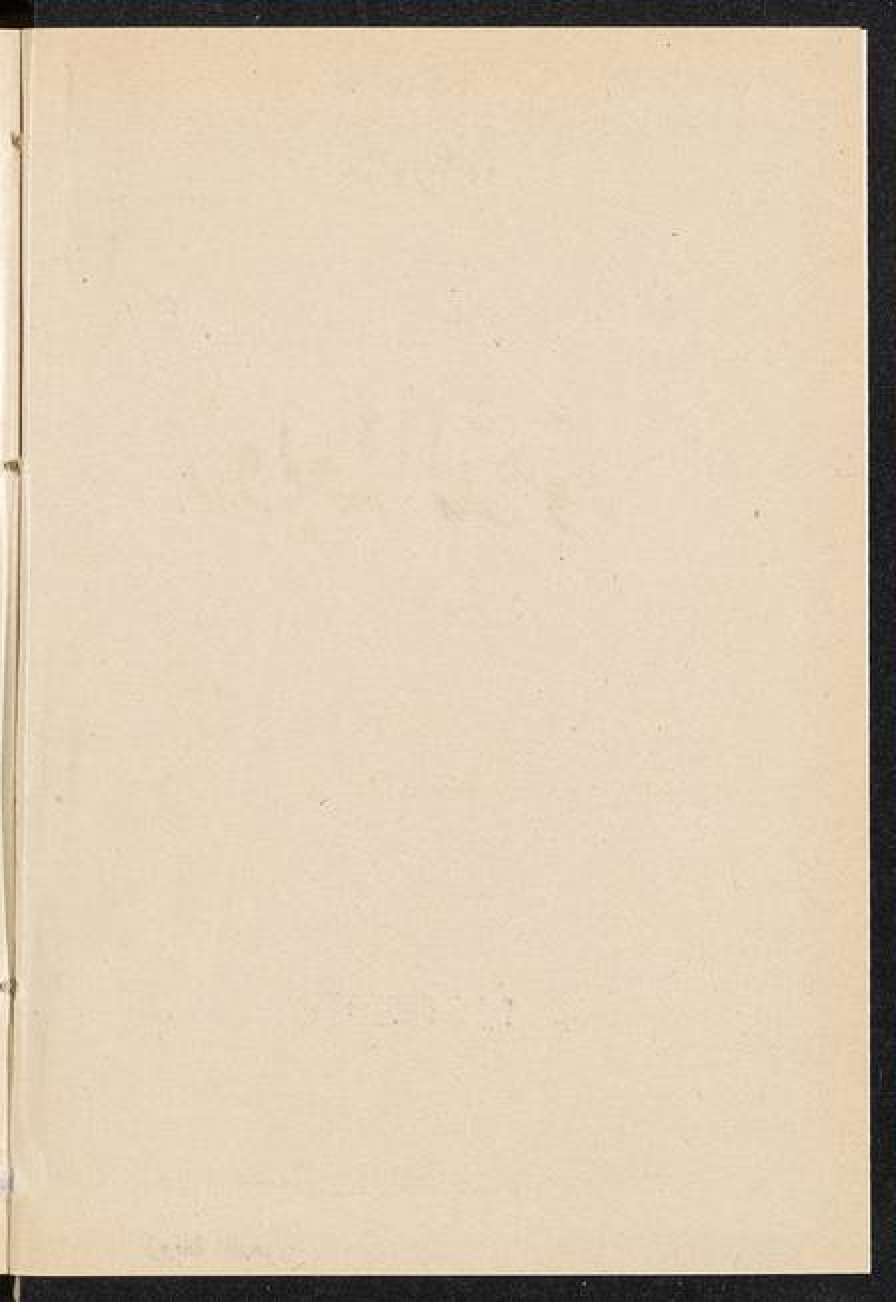


زوبعة الدهور

منشورات دار المكشوف







مَارُون عِبُّود

زوبَعة الدّهوْر

ولو طار جبريل بقية عمره
من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

المعري

منشورات دار المكشوف

طبع من هذا الكتاب الف وخمسمائة نسخة على ورق جيد ، و ٦ نسخ على ورق فاخر خاصة بالمؤلف .

الطبعة الاولى ، ١٩٤٥

المُعضلة العلمانية

كيف كنت افهم المعري

١

يفتتح داعي دعاة التوحيد، شيخ المعرة، «ألفية» فلسفته بل كتاب المذهب «لزوم ما لا يلزم» بقوله :

تكرّم اوصال الفتى بعد موته
وهنّ اذا طال الزمان هباء

فخفت ان يزعجه هذا الاكرام بعد الف سنة. وكأني به قد نظر اليه بعين الغيب فقال :

واكرمني على عيي رجال
كما روي القريض على الزحاف

وقفت حيران لا ادري ماذا اقول في هذا العرس، فمن عادة البشر تعظيم العريس، مهما كان شأنه، فكيف بنا وعريسنا

اليوم ، اعزب الدهر كشيخنا ابي العلاء ، الذي يكال له الثناء بالمد ، ويقاس بالاميال والفراسخ .

ان شيخنا المعظم يحب الهجو ، ويسيء الظن ، وينهى عن المدح حتى قال لنا :

فلا تمدحاني ، يمين الثناء

فاحسن من ذاك ان تهجواني

والعجيب الغريب ان يكذب الناس جميعهم : نبيهم ورسولهم ، اديبهم وشاعرهم ، خواصهم وعوامهم . ابغضهم وجافاهم فتهافتوا على سراج ينوس في مهب عواصف الدهر فجزاهم على ابتسام بابتسام ، حتى اذا ما انصرفوا من تلك الحضرة المتألهة تقمّص ربها روح ذاك الصعلوك القائل : ولي دونكم اهلون سيد عملّس. . . فقال فيهم مثله :

والوحش في الفلوات اجمل عشرة

للمرء من اهليه في الامصار

واوغل في مفاوز اساءة الظن فقال ايضاً :

اعدى عدو لابن آدم خلته

ولد يكون خروجه من ظهره

ثم رماهم بالجهل المطبق واقصى الغباوة فقال :

لو قال سيد غضا بعثت بعلة

من عند ربي ، قال بعضهم نعم

اذا نظرنا الى «الظاهر» ايقنّا ان الشيخ الامام غضبان ، حردان على الدنيا وبنيها ، فالقى قنابل محشوة غازات وسموماً على مدينة المثل العليا فاصابت الجميع :

قد ترامت الى الفساد البرايا

واستوت في الضلالة الاديان

انا اعمى فكيف اهدى الى المنهج

والناس كلهم عميان

قرأت في هذه الاشهر كل ما املاه الامام واخرجته المطابع ، وتتبعت آثاره في مهاوى « لزومياته » ، وتسلقت قمم « رسائله » متلمساً النور من « سقط زنده وضوء سقطه » لعلني ادرك بعض « غاياته » واشهد تمثيل « فصوله » فكنت كمن يستنير بالحباحب . رأيتني في يهماء تكذب فيها العين والاذن . رأيت ، بادىء ذي بدء ، رجلاً يقودني الى حيث لا يدري ولا ادري ، فلم اجد اكفأ من كلمة ذلك الوزير الذي زاره فقال له : ما هذا الذي يرويه الناس عنك ؟ فاجابه : قوم حسدوني فكذبوا علي . فسأله الوزير : وعلى مَ حسدوك وقد تركت لهم الدنيا

والآخرة ؟ فاجاب المعرّي : والآخرة . . . واطرق منطوياً على نفسه ، بل على سره الذي كان من كتمانه في جهد جهيد.

اجل ، رأيتني باتباعي شيخ المعرة اصبحت لا دنيا ولا دين ولا آخرة ، وهذا عجيب . يدعو الرجل الى تطليق الدنيا ولا يرتجي غيرها ، فكيف يكون هذا ؟ ما رأيت فلسفة بلا غاية الا فلسفة المعري . فقام في ذهني ، اذ ذاك ، ان الرجل ساخط ، متبرم ، متشائم ، يهجو الانام ، لا اكثر ولا اقل . لا يرى الجمال فيفتنه سحره ويلطف مرارة عيشه . فاتبع « العقل » ، والعقل يهدي ولكنه هادٍ ،ميّت ، جاف العشرة . ظننت ان الاكسير الذي يحلي مرارة العيش ليس في متناول يد المعري . اخفق في طلب الدنيا لانه غير مستطيع فانطوى على نفسه في عقر بيته واستدار يفح فحيحاً راعباً . انزوى كالخلد يقرض جذور التعاليم لييبس ما غرسه السلف ، وصب على الدنيا وبنيها زيت سخطه المغلي فشواها بناره وكبريته . كنت اظن ان نسك ابي العلاء لا يراد منه الثواب ولكنه فعل ما فعله ديوجين حين داس كبرياء ارسطو بكبرياء اكبر منها . . .

يخيب بعضنا في الحياة فيهرع الى الدير . فان كان رجلاً خطب ود مريم وحل هذا الزواج الصوفي محل الزواج الاخر

وتسامى صاحبه الى المثل الاعلى فخدم البشرية خدمات جلى .
وان كان انثى كان عريسها يسوع القائل : من لا يترك من أجلي
أباً او أخاً او اماً فهو لا يستحقني . فحباً بالعريس المرجى تقف
حول سرير المريض ، وتحنو على اللقيط ، وتعطف على اليتيم .
اما نسك شيخنا — رحمات الله عليه — فيسفر في ظاهره عن
سخط اشبه بالقذف ، فهو يذم الامهات والاخوات بأردأ النعوت
والالقاب . يخاف عليهن حتى من اقرب الناس . ما قصر عن
الحطيئة في شيء بل ما خلته الا مثله حين قرأت قوله :

بدء السعادة ان لم تخلق امرأة
فهل تود جمادى انها رجب
ولم تقب لاختيار كان منتجباً
لكنك العود اذ يلحى وينتجب
وما احتجبت عن الاقوام من نسك
وانما انت للنكراء محتجب

فهل تدل هذه الابيات على شيء ؟ استغفر الله . انني ، علم
الله ، حسن الظن بالشيخ . ولكن ألا يحق لي ان اشك فيه كما
شك هو لعلمي انه بعض الانام ؟ . ولكن لا ، انني اثق به ،
انه لصادق السريرة والعلانية . غير اني اسمح لوجداني ان يعتقد

ان ابا العلاء فجع بالانثى التي تعلقها قلبه وما هجا الدنيا ذاك الهجو المر الا لاجل تلك التي لم ترعَ لهذا الضرير عهداً . وقد تكون هي التي حملته على الهجرة الى العراق على قلة استطاعته .

يشير الشيخ على الناس بشيء، ولكن اشارته تبعث على اليأس ، ويا ليته يأس مريح . انه يأس يستوي فيه الاعمى والبصير كقوله :

والخير افضل ما اعتقدت فلا تكن

هملا ، وصلّ بقبلة او زمزم *

كنت احسب هذا تظرفاً من الشيخ ـ والشيخ كان ظريفاً في شبابه ، ولكن ظرفه تحول فيما بعد ـ فقلت اذ ذاك : كم من متدين هو اسمى عقلا منا فكيف يغرب هذا عن بصير كالمعري ؟ فاذا بي ارى الشيخ مدركاً هذا يقر به ويقول في رسالة الغفران : وقد تجد الرجل حاذقاً في الصناعة ، بليغاً في النظر والحجة ، فاذا رجع الى الديانة ألفي كأنه غير مقتاد ، وانما يتبع ما اعتاد (ص ٢٥٥) .

* اننا لا نستغرب هذا القول من رجل قال :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله

اثنان اهل الارض ، ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له

لست بالمبشر في هذا المقال ولكني قرأت اللزوميات لارى ما يدعو اليه ابو العلاء فلم اقع – اولا – على شيء ، فعدت من قراءتها وقراءة كل آثاره ، كما عاد صاحبنا من العراق راضياً من الغنيمة بالاياب . رأيت رجلا يهجو الدنيا ويزدريها كالمسيح ، ولكنه لا يترجى ملكوتاً ولا نعيماً . فماذا نعمل نحن الذين لا نصلي ولا نشكر الا طمعاً بالثواب ، واين هي الغاية نسعى لها ، بل اين هي الفلسفة التي يجب ان نقر له بها ونضعه لاجلها بين حكماء الاجيال ؟

فنفضت يدي من صاحبي وقلت : لا هذا ولا ذاك . ما هناك الا اعزب الدهر مقيم في غرفة سوداء يناجي الاشباح والارواح . شفتان ترتجفان وتتمتمان ، يستعرض جبهة الازل وساحات الابد ، يفكر دائماً بالمعضلة السرمدية ويصوب نحوها نبراس عقله فيهرب الظلام ولا يكشف له النور عن شيء ، فيلتجيء الى ما طبع عليه اي السخر والهزء ، فيضحك من موكب الحياة الصاخب لانه لا يقدر ان يماشيه فيرى جميع الناس صماً عمياً بكماً :

افضل من افضلهم صخرة
لا تخدع الناس ولا تكذب

فقلت تلك نتيجة مركب النقص ، كما يزعم علماء هذا

الزمان . عجز ابو العلاء فرأى جميع الناس اشراراً قساة القلوب ، يفتكون بالضعيف ويصفون له « الفرّوج » لانهم استضعفوه ، فلماذا لم يصفوا شبل الاسد ؟ غضب المعري على المستطيعين لانه غير مستطيع مثلهم فعدّ النسل جناية . تحدث كثيراً عن المرأة لانه يحبها ، واساء الظن بها لانه يريدها ويغار عليها ، وهو عاجز من جهتين ، فقعد يكرّه الناس بالحياة ، وفي الحياة ناموس يجذبنا اليها فكيف يقوى على صده ضرير ولا سيما انه يقول : ام دفر لقد هويتك جداً . . . كما سترى .

اذن غضب ابو العلاء على الدنيا لانها لم تحسن استقباله ، فهجاها انتقاماً منها ، ولكنها اجابته بقوله :

رب لحد قد صار لحداً مراراً

ضاحك من تراحم الاضداد

اقول هذا واشهد انني ظلمت الشيخ ــ قبل ان ادرك سره ــ والله وحده يعلم ان كنت ادركت شيئاً . . .

٢

لم استغرب قول صاحب يتيمة الدهر انه عرف في معرة النعمان شاعراً ظريفاً اسمه احمد بن سليمان ، فصاحبنا ابو العلاء

ظريف حقاً . لا بد هنا من تصفية حساب احدى مشاكل الرجل . فقد توهم الناس حتى الخواص من الادباء — هدانا الله واياهم — ان ابا العلاء خلق منزهاً عن الشهوات بريئاً مما يسميه غيرنا الضعف البشري ، لا ينقصه شيء من الكمال في نظرهم حتى كادوا يجعلونه بمعزل من الغرائز كأنه غير مركب من لحم ودم . ان ابا العلاء ، ايها الفضلاء ، — وهذا لا يضير عصمته التي تزعمونها له — قد تغزل كالشعراء لانه احب مثلهم — الحب لا يضر يا سادة — واحس بما احس به كل مركب من نفس وجسد وله دماغ وقلب ، انه لم يقل عبثاً :

ايا دارها بالخيف ان مزارها   قريب ولكن دون ذلك اهوال

وقال ايضاً :

ايا جارة البيت الممنع جاره   غدوت ومن لي عندكم بمقيل
لغيري زكاة من جمال فان تكن   زكاة جمال فاذكري ابن سبيل

وابو العلاء مدح كالشعراء ، وهذا بالزفاف وغيره مثلهم ، ولم يقصر عن ابي الطيب في غلوه وايغاله ، حتى قال لاحد زعماء الشيع يهنئه في عرس :

كأنها سر الاله الذي   عندك دون الناس يستكم

وليس يبالغ هذه المبالغة الا من يطمع في حطام الدنيا ،

فابو العلاء قد جنى مثل غيره غلة الشعر ، وذاق بواكير محصوله – اي قبل نسكه . وابو العلاء رثى كالشعراء ، وهجا مثلهم ، ولكن هجواً لا هجر فيه ، وافتخر وادعى مثل الشعراء بل اكثر منهم . فلنثق جيداً ان المعريّ انسان مثلنا ، اكل وشرب وتلذذ مثل الناس ، وهو لم يكذب علينا حين قال :

تنسكت بعد الاربعين ضرورة
ولم يبق الا ان تقوم الصوارخ
فكيف ترجّي ان تثاب وانما
يرى الناس فضل النسك والمرء شارخ

ويقول ايضاً معبراً عن اختباره الواسع الدائرة :

ان الشبيبة نار ان اردت بها
امراً فبادره ان الدهر مطفئها
اصاب جمري قر فانتبهت له
والنار تدفىء ضيفي حين ادفئها

وهو يعترف باخذه قسطاً وافراً من نعيم الحياة حين يقول :

خبرت البرايا والتصعلك والغنى
وخفض الحشايا والوجيف مع السفر

ويقول عن الدنيا ورياء البشر واظهارهم الصدوف عنها :

من لم ينلها اراك زهدا
ومن لعير بصلّيانه

ثم لا يكتفي باخبارنا عن هذا الترك بل يقول لماذا فعل ذلك :

ولم اعرض عن اللذات الا
لان خيارها عني خنسه

ويقول ايضاً في آخر الشوط :

غنى وتصعلك وكرى وسهد
فقضينا الحياة بكل فن
زمان لا ينال بنوه خيراً
اذا لم يلحظوه من التمني
عرفت صروفه فازمت منها
على سن ابن تجربة مسن

لم ينزه ابو العلاء نفسه عن كل هذا ، ومع ذلك يقوم فينا ، بعد عشرة قرون ، من يغار عليه ، ويأبى ان يقر له بذاك ليرينا اياه رجلاً حلت عليه النعمة في البطن . . . ثم يتساءل : « من اين له الغنى وخفض الحشايا ؟ ما نشك في انه قد مر بهما مرور الطيف في يوم من ايامه التي قضاها عند اخواله بحلب ، او عند اصحابه بمدينة السلام . ولعله ظن جلوسه

على الفراش الوثير وتمتعه بالطعام الشهي ساعة من نهار في دار سابور بن ازدشير ، او عبد السلام بن الحسين ، ابتلاء للغنى . »

عجيب والف عجيب امر صاحبنا هذا . ترجح دائماً كفة الغرض حيث ينصب ميزانه ، فهو ان وزن المعري تقصر جميع اثقال الدنيا عن ان تزنه وتعادله ، وان وضع فيه المتنبي شال ولم تواز شخصيته حبة خردل .

فاما ان ابا العلاء صادق ، واما انه غير صادق ، فان كان صادقاً فقد اقر واظهرنا على ضعفه هذا — ان سميناه ضعفاً — وان كان غير صادق فلماذا نصدق ما زعمه ورواه عن زهده ، بل لماذا لا نشك بقوله على الاقل ، ان لم نكذبه ؟ فالذي عندي هو ان ابا العلاء بلا الدنيا وذاق حلاوتها وتكلم عن اختبار واعتبار فلا ننزهه عما لم ينزه هو نفسه عنه ، ولنصدق معاصره الذي وصفه بالظرف . هبوه ابا حنيفة الامام المتبوع فقد كان في اول عهده من عشراء حماد عجرد وجماعته . وهبوه القديس اوغسطينوس يعترف ، فما ضر اعترافه علمه ولا قداسته .

فلنسمع اعتراف ابي العلاء . قد نسك شيخنا وتزمت بعدما اخفق ، او قل « تحول » ظرفه حين مشى في جادة اخرى وامسى حبيساً . انه لم يولد في البصرة بل في معرة النعمان ، والمعرة

بلد منعزل ضيق ما فيه الا قيود وتقاليد . تذكّر الشيخ قول ابي نواس : نعم اذا فنيت لذات بغداد ، فقصدها ، ولكنه عاد خائباً من باريس العالم القديم لانه غير مستطيع ، فكان من امره ما كان . انزوى في بيته يعلم الناس كباراً وصغاراً ويهزأ بالناس اجمعين ، ويضحك من مطامعهم العجيبة ، وغلواهم فيه . قال شيخنا الجليل :

والذي حارت البرية فيه

حيوان مستحدث من جماد

قال قوم ولا ادين بما قالوه

ان ابن آدم كابن عرس

فقام منا من يزعم انه سبق داروين الى علم النشوء والارتقاء . انه لا يعني فيما يقول اكثر مما نعتقده اي ان الانسان مخلوق من تراب . ولا يعني بقوله : ان ابن آدم كابن عرس اكثر مما يظن الفلاسفة الماديون . وغضب ابو العلاء على البشر حين اعتقد « الخير » مذهباً فقال :

اقلقتم السابح في لجة

وروعتم في الجو ذات الجناح

هذا وانتم عرضة للفنا

فكيف لو خلدتم يا وقاح

فقام ايضاً من يظن انه ممن كشفت لهم حجب الغيب ، وقد نظر الى ما سيكون فحدثنا عن الطائرات والغواصات . وابو العلاء المسكين لا يعني الا قنص الطير وصيد السمك . . . الزم شيخنا نفسه ما ليس يلزمها فسخط على المتساقطين على مائدة الدنيا كالذباب . ولو كان عنده علم هذ الزمان لحرم علينا شم الهواء وشرب الماء لان فيها حياة ، ولامتنع عن اكل العدس لانه بلد الطوبرات ، ورفع يده عن سلة التين لان التين اذا خم يولد بنات عم البرغش . ضلالة هندية اعتقدها ابو العلاء ، واراد ان يجعل نفسه حقل اختبار لفلسفته كما فعل تولستوي حين خرف . هكذا ظننت قبلما عرفت رأيه في « النفس » وقبلما بان لي انه يرجو ثواباً .

اعتكف ابو العلاء على درس ابي الطيب فكانت اولى صرخاته : نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن ، وابغض الدنيا واهلها مثله ، فاختار لها ابشع الالقاب واوخمها . وهذه الكنية النتنة التي اطلقها عليها مأخوذة من قول معلمه ابي الطيب :

وقتلن دفرا والدهيم فما ترى
ام الدهيم وام دفر ثاكل

ثم ذهب في ذمها مذاهب ابعد يعرفها كل من له المامة بالادب ·
اعجب شيخ المعرة بالمتنبي فتناول كلياته الفلسفية وطفق يبسّطها
ويمططها فكان في نظري مكبراً فوطغرافياً لصور المتنبي فترك
لنا هذا الميراث الفلسفي المنظوم . فما لزوميات ابي العلاء الا
كألفيّة ابن مالك . هذه تتضمن صرفاً ونحواً وتلك تتضمن فلسفة
لما صاحبها من هنا وهناك ، فهو لمام فلسفة لا فيلسوف . واعرف
كثيراً من معازة وبقارةو بغّالة عندنا يقولون عن الطقوس
وغيرها ما قاله ابو العلاء ، وقد يعبر بعضهم احياناً بسخر مثل
سخره ولكنه لا يحسن النظم مثله .

وضع ابو العلاء الرجاز في آخر الجنة تحقيراً لفنهم فأين كان
يضع نفسه فيها لو سألناه ذلك ؟ لا شك انه لا يجيب ببيته
المشهور :

وانّي وان كنت الاخير زمانه

لآت بما لم تستطعه الاوائل

فقد افحمه ذلك الصبي ان صحت الرواية . . . اما انا فأراه صادقاً
في هذا البيت بالنظر الى رسالة الغفران ، فهو اروع اثر عربي
ينم عن ظرفه ويبرىء تلك التسمية . فمن شاء ان يتعرف عليه فليطلبه
هناك . اما لزومياته فقلما تجد فيها شعراً . ولنعظمه لاجل ذلك

الاثر الخالد . قد اخفق فيما كتبه بعدها من رسائل وفصول ولم يدرك غاية من الغايات لان فكرة صاحبنا واحـدة فهو منهـا كطائر في قفص او كجواد طوّل له ليرعى فخط دائرة بمقدار ذلك الحبل .

ان رائحة اعزب الدهر لا تعجبني ، فالشعر ابن الحياة وكل شعر يبتعد عنها ينفر منـه القلب وتشمئز النفوس . ففي شعر ابي العلاء رائحة يأس قتّال ومن يتبعه كان مغفـلا يقع واياه في حفرة . قد تدخل عقلي افكار ابي العـلاء الزهـدية حين اشبع ميولي ، اما حين انشط فأراه اخا البوم ينعب ولا يتعب . اني لاكره النوح والنعيب واحب الفن راقصاً في كل زمان ومكان حتى على القبور ، فليتني اودع بطبل وزمر فأدخل ذاك الباب بين اجواق الزامرين والراقصين ولا اودع وداع يأس كما زعم هو . . . لست الوم الشيخ ان قال :

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم

فيهـا والعيش مثـل السهـاد

ربما كان صادقاً ، ولكن لا ، فشعره غير مصداق لقوله ، ورحم الله استاذه ابا الطيب اذ اجابه عنا :

واذا الشيخ قـال آف فما مـل

حياة ولكن الضعف ملا

لقد كان ابو الطيب يلم من كل فن بطرف ، فالغيد عنده ساعة ثم تنقضي ، اما ابو العلاء فيريد ان يجذبنا صوبه فما مثله الا كمن ينادي : ترمس احلى من اللوز ! هيه يا ابا النزول ، فليصدقك غيري . اما انا فلست اذوق ترمسك ما استطعت اكل اللوز والجوز . . . اني لاعجب ممن يقول :

تحطمنا الايام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ثم يدعو الناس الى ترك اطايب الدنيا . ان الفلسفة العلائية ترى كل ما على الارض ضلالا وباطلا ثم لا ترجو معاداً ، أليس هذا منتهى العجب ؟ انطقته بزاعمه غريزته الموءودة ، فجسم ابي العلاء مقبرة عواطف ترجو الحياة ، فولد تساميه تشاؤماً ويأساً ، بل صاحت هامته : اسقوني ، فقدم لها زاده الفلسفي المعفن . شبع سليمان من لذائذ دنياه واطايبها فقال لنا بعد ان مسح فمه : باطل الاباطيل وكل شيء باطل . ولكن هذا قالها ولما يذق من حلاوة دنياه غير التين ، كما زعموا . لا تصدق ذلك ، فابو العلاء عرف جميع ملاذ الدنيا وذاق ضروب حلاوتها كلها الا الخمرة .

٣

ان اعجب فاعجب من اعميين هما الضدان اللذان لا يجتمعان، ابو معاذ، اكمه البصرة، الشره القرم الى الاحمرين، الخمر واللحم، وابو العلاء ضرير المعرة وهو بحق صائم الدهر:

انا صائم طول الحياة وانما

فطري الحمام ويومذاك اعيّد

انا واثق ان شيخنا، قدس الله سره، ما عيّد قط لا على لحم ولا على بيض ... اللهم بعدما نسك. اما كيف يفطر وكيف يعيّد ابو العلاء اذ يموت فهذا يأتيك خبره في حينه، فلا تستعجل الامور قبل اوانها فتعاقب بحرمانها. ان ابا العلاء ربيب المتنبي في خطوط فلسفته الكبرى، وهو اخو الجاحظ في هزئه المتلبس بالجد وسخريته المتعالية حتى على الخواص. ليس ابو العلاء شاعر الفلاسفة ولا فيلسوف الشعراء، فقد ابعدته فلسفته عن الشعر. ولا يصح ان نعده، في لزومياته، شاعراً الا اذا جاز لنا ان نحصي ابن مالك في الشعراء. ليست لزوميات شيخنا ديوان شعر ولكنها كتاب جمع فيه مؤلفه اصول «مذهبه» وبسطها بسطاً معمّى تقيّة وايثاراً للعافية. أما نبهنا الى ذلك بقوله:

اوجز الدهر في المقـال الى ان
جعل الصمت غـاية الايجـاز
لا تقيّد علـي لفظي فـاني
مثل غيري تـكلمي بالمجـاز

فمن هو هذا « الغير » يا ترى ؟ هذا ما يعنيني ويعنيك ايها القارىء اللبيب ، ففكر معي الى حين يفتح الله علينا . كان في نفس المعري حاجة ما اجترأ على مفاتحة الناس بها فلم يمن بما مني به المتنبي من قصاص وخيبة . . . امّا المتنبي فأخفق في دعواه ولم يخفق في فنه الشعري ، والمعري بالضد ، اخفق في الشعر وفاز بالتوحيد ، اعني التوحيد الذي يفهمه هو و« الجماعة » القائلون : الاسلام باب الايمان ، والايمان باب التوحيد .

المعري رجل كلام وجدل ، مفكر حرّ حطم سلاسل الوراثة واغلالها فلم يشل عقله اذ واجه المعضلات الابدية التي لم تحلّ . القى مشكلات عصره في قفص الاتهام وقعد يستنطق الاجيال ويقلب ما تركت من الاثار بطناً لظهر ، ثم حبس احكامه عليها في سجون الاوزان والقوافي . ناقش كل معضلة فمضى وكأنه لم يحلّ واحدة منها . اما عارفو سره فيدركون بوضوح ما يعنيه صاحبهم اذ يقول :

غدوت مريض العقل والدين فالقني
لتعلم انباء الامور الصحائح
بني زمني هل تعلمون سرائراً
علمت ولكني بها غير بائح

ان المعلم من « سره » هذا في جهد جهيد ، مثله مثل امرأة ادركها المخاض فهي تتوجع وتتألم ، والوضع منها بعيد . اشعرنا ابو العلاء في مقدمة لزومياته انه يكتب كتاباً لا ينظم ديواناً ، ولولا الاجترار والتكرار لقلت انه اعد لكل فكرة زنداناً اي فصلا . شك القدماء في كتبه النثرية فاتهموه بمحاكاة القرآن الكريم في كتابه الفصول والغايات . وها انا ألحظ ايضاً ـ وبعض الظن اثم ـ ان كتابه الشعري ، لزوم ما لا يلزم ، مؤلف من مائة وثلاثة عشر فصلا ، وسور القرآن العزيز مائة وثلاث عشرة سورة ، فهل قصد ذلك يا ترى ؟ ان الشيخ ، رحمه الله ، متهم ، وهو ماكر على فضله وتقاه ، لقد قال : واني وان كنت الاخير زمانه . . . فمن ينفي عنه حسبان نفسه « صاحب الزمان الاخير » المنتظر في دهره بفارغ الصبر ؟ واني لأرى رسالته « ملقى السبيل » اعلى ذرى التقليد المزعوم .

كل هذه المزاعم جائزة بل هي عندي تشبه اليقين . أما

ظن الفرنسيون مريدو « لامنه » شيئاً من هذا بكاتبهم العظيم فالتفوا حوله؟ ان تلك الثورة العقلية الصاخبة في زمن ابي العلاء تظن بها الظنون ، فلا تستغرب يا قارئي ما زعمت لك . واني لاعتقد ان المعري نظم كتابه طبقاً لترتيبه ولم يزج هنا وهناك الا القليل . ومن تأمل رأى الضعف ملموساً في آخره لان الشيخ كان فيه بين جهدين ، جهد العمل الجاهد ، وجهد الثمانين .

ادرك الشيخ ، عفا الله عنه ، ما في شعره من جفاف فقال فيما قدمه بين يدي لزومياته : واضيف الى ما سلف من الاعتذار ان من سلك هذا الاسلوب ضعف ما ينطق به من النظام ، لانه يتوخى الصادقة ويطلب من الكلام البرة ، والشعر باب من ابواب الباطل فاذا اريد به غير وجهه ضعف .

لسنا نعفي شيخنا من جريرة هذا الزعم ، ونرد عليه قوله وبرهاننا من شعره وفيه ، فقصيدته « غير مجد في ملتي » من اجود الشعر وفيها الصادقة والبرة من الكلام ، بل هي نواة فلسفته التي انبثقت منها تلك النبعة التي لا يوازى باعلى نبتها الشجر كما قال الاخطل ، ومع ذلك لم تضعف تلك القصيدة . فالشعر يضعف ويأتيه الباطل من الجهات الست حين يصبح جدلا كما فعل شيخنا الموقر ، او حين يصبح الفاظاً تردد وتجتر كما يفعل اكثر

شعراء الجيل الطالع . . . ان من يشغل باله النحو والصرف في الشعر كأبي العلاء فيقول :

ستتبعـه كعطف الفـاء ليست

بمهـل او كثم على التراخي

لا يكون حظه من الشعر النقي الا قليـلا . فثقافة ابي العلاء الفنية مستمدة من جميع مـا عرفه العرب ، وهو اعظم راوية عرفه ادبنا . وغايته الاولى علم الكلام والجدل ومقارعة ائمة الاديان اجمع ، وفنه في اللغة والنحو والصرف والعروض وكل ما انشىء لصون اللغة من علوم كما يرى المفكر حين يقرأ آثاره كلها . في شعره اللزومي ثورة تنفخ فيه حياة مبعثها روح الشاعر الثـائرة المتمردة الساخرة ، فملح بعضه وطاب . سيّر الشاعر قريحته في غير اتجاهها كما سيّر نفسه فقضى على الثنتين .

قد تسأل عن مشاكل النحو والصرف وغيرها التي افسدت فن شيخ المعرة حتى في اروع آثاره – رسالة الغفران – فـاسمـع كيف يقول واحكم انت :

اذا غدوت عن الاوطان مرتحلا

فضاه في البين حذف الواو من يعد

ومع هذا عاد شيخنا من بغداد الى معرته ولم يفارقها مفا قة

الواو مضارع وعد، بل لزمها لزوماً ابدياً. وشاء النهي عن الزواج فالتجأ الى النحو والبديع فقال:

لا تدنونّ من النساء
فان غب الاري مر
والباء مثل الباء تخفض
للمدناة او تجر

وادرك انه يخالف وصية زعيم المذهب القائل «واحدة تكفيكم» فرجع عن غلطه. فتش فوجد في النحو معيناً فقال:

تزوج ان اردت فتاة صدق
كمضمر نعم دام على الضمير

والتفت نحو الدنيا ليخاطبها كعادته فوجد في احدى القراءات معيناً يمهد له الطريق فقال:

ام دفر لقد هويتك جدا
أي ضب تركت من غير حرش
خففي الهمز في النوائب عني
واحمليني على قراءة ورش

ثم ورد منهل العروض فقال:

وانك مقتضب الشعر لا

يزيد بمجال ولا ينقص

الدهر كالشاعر المقوي ونحن به

مثل الفواصل مخفوض ومرفوع

وحدثنا عن محبسه فاستجار بنعم وقال:

وما زال نعم الرأي لي ان منزلي

كأني فيه مضمر كُنّ في نعما

واسمح لي ان اختم بهذا البيت من تلك البضاعة المزجاة:

وترفع اجساد، وتنصب مرة،

وتخفض في هذا التراب، وتجزم

لم يبق الا الشد والمد والقطع والوصل وفيها مجال فسيح للناظم. اني لاعذره فيما اعنفه ولا ازعم اني ذكرت كل شيء. ولست بمحدثك عما تعمد من ضروب البديع الشنيع، فالحط من قدر هذا النابغة لا يخطر لي ببال. وانا والله احترم ادبه جداً. وقد زرت قبره الحقير قبل ان دعا الريحاني الى الاحتفال بعرسه الالفي. وكتبت ما كتبت عن تلك الزيارة التي تركت في نفسي اسوأ الاثر...

ان الشيخ الامام يدعونا الى اتباعه في ترك الدنيا بقوله لنا:

وان شئتما ان تخلصا من اذاتها

فحطّنا بها الاثقال واتّبعاني

يذكرني قوله بالكلمة الانجيلية : احمل صليبك واتبعني .
ولكني اجيب الشيخ : ضرب الحبيب زبيب . ثم اصارحه انني
لن اتبعه ولو عمرت مثل متوشالح . ان ناموس الحياة يزيجنا
ثقالا لا خفافاً ، فكيف نلقي العتاد ونهرب من المعركة ؟ لو
شئنا ان نعيش بعقلنا — كما يريد هو — لوقفت حركة الكون
وصح فينا قول ابي الطيب : ذو العقل يشقى في النعيم بعقله .
فليتبع ابو العلاء شيخه العقل . اما انا فمن الجهّال لا العقّال . ان
بعض العقل عقّال كما قال ابو الطيب ، فلننطلق .

وبالاختصار اقول : ان في ادب العميان جميعاً رائحة عفن
لا تعجبني ولا استطيبها ، ولم يخل منها حتى شعر بشار ذلك
القطب الجنوبي المتقد ان صحت تسمية المعري قطباً شمالياً اصقيعه
وجليده .

واخيراً اسأل ابا العلاء ان يغتفر لي وقاحتي وتطاولي على
سدته السنية لانه امرني ان ابتعد ما استطعت عن التقليد حتى
في الصلاة :

في كل امرك تقليد رضيت به

حتى مقالك : ربي واحد احد

انني اثق برحابة صدر الشيخ ولكنني اخشى غضب من يؤمنون به ايماناً اعمى ويريدون ان ينزهوه . . . ان من يقرأ ابا العلاء ويفكر بما يدعو اليه يظنه دهرياً عدمياً . ورجل حكيم واع كأبي العلاء لا يصح ان يكون بلا مذهب ، ناهيك بان هذا مستحيل . فعلم النفس الحديث يثبت ان لا بد للانسان من معتقد ، بل لا بد له من التفكير في فرض لحل المشكلة العظمى التي تواجهه كل لحظة ، فما هو مذهب المعري الذي يبرر ذلك الزهد العنيف ؟ لولا هذا الفرض كان صاحبنا مجنوناً . ولماذا يتنسك هذا النسك الاهوج من لا ينتظر حالة خيراً من التي هو فيها ؟

لم يعجب ابا العلاء سماع قوله تعالى حين تلاه في حضرته ذلك المقري : ومن كان في هذه اعمى فهو في الاخرة اعمى واضل سبيلاً . اذن فما عساه يرجو وهو ذلك اللبيب ، وعلى اي رجاء يموت ؟ ان نقل لا رجاء له كما يبدو لبعضهم من تردده وشكه فلماذا هذا التقشف ؟ ألا يستطيع ان يعمل خيراً ويعيش مثل الناس ؟ فماذا يبرر هذا الشذوذ ويعفي الرجل من البهلة فلا يكون هملاً ، كما حذرنا هو ، ولا يترك سدى ؟

عبثاً نحاول حل مشكلة المعري على مذاهبنا المعلومة

المكشوفة فهو لا يدين بها ، وقد حمل عليها حملات عنيفة فلا تحاول تبرئته فتتمسك بما هو اوهى من خيط العنكبوت .

واني لاجلّ صدقه فهو أجلّ وأسمى من ان يكون ملحداً معطلاً ، كما سماه ابن الجوزي في تلبيس ابليس . انه لم يصرح بدينه لا سراً ولا جهراً ، لا تلميحاً ولا تلويحاً ، حتى في احرج الساعات وارذل العمر حين يمسي الرجل إمعة ، ساعة هاجم حصنه داعي الدعاة واراد ان يريح العالم من دينه . . .

ـ لا تنس انني احدثك هنا عن فهمي الاول للمعري ـ كان في استطاعته ان يقول كلمة واحدة تريحه وتغنيه عن ذاك اللف والدوران ، ولكنه أبى ان يكون منافقاً ومذهبه يقوم على « الصدق » وان جوّز الكذب عند الضرورة القصوى ، كما سترى .

ان لم يكن المعري يريد اشادة مذهب جديد فهو على الاقل ذو مذهب . فما هو ذاك المذهب ؟ هذا ما سيضطرب له الاستاذ رئيف خوري .

روي ان أبا العلاء حين كتب « معجز احمد » قال كأن المتنبي نظر اليّ بعين الغيب فقال :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي

واسمعت كلماتي من بـه صمم

وانا اقول كأني بصديقي الاديب الكبير رئيف خوري قد دخل مخدعي منذ شهور وفتش اوراقي وفيها المحظورة قراءته والمباحة ، كأني به قد حضر احدى الجلسات التي كنت استنطق فيها ابا العلاء القائل :

لا تخبرن بكنه دينك معشراً

شطراً وان تفعل فانت مغرر

واصمت فان الصمت يكفي اهله

والنطق يظهر كامناً ويقرر

كأنه درى بكل هـذا ، فقال ما عزته اليه مجلة الاديب الغراء في عدد ابي العلاء : اننا في لبنان لن نترك ابا العلاء حتى نعطيه تذكرة هوية طائفية .

هو ما تقول يا اخي ، ولا اشك في انك تسلم بضرورة « الفرض » لحل المشاكل العظمى ، وهل حل اعظم المشـاكل الكونية غير الفرض ؟ ولهذا رأيت ان المعضلة العلائية لا تحل الا بهذه التذكرة ، فهي المفتاح لهذا الباب الدهري المغلق .

ان للهوية يا رئيف شأناً جليلاً في علم النفس ، فاسمح لي ان امنح المعري هذه التذكرة واستسفره الى دولة الادب ، فان

كان مرغوباً فيه فاحفظها لديك ، والا فاعدهـا اليه واقصِه الى الحدود فيعود من حيث جاء .

حاشية ـ خاطبتك بيا اخي فلا يعزّ عليك ذلك . ما في ذلك غض من فتوتك فالناس يعلمون انك فتى . لا اعني ابن عشر بل اعني شاباً مندفعاً كالتيار في بحر الانتاج ، وأرى في نتاجه اشياء يكتب لها البقاء ، واترجى ان يجتمع اشدك في الدهر العتيد كما يترجى المؤمن قيامته بالنفس والجسد .

اللهم حقق لنا الامنيتين واهدِ شبابنا الحائر الى ذاته حيث يجد الادب الذي لا يموت ، فما اكثر ما تنتجه قرائحهم كالزهرة المعروفة « شب الليل » .

عصر الأسرار والخفاء

عصر ابي العلاء

العصر الذي كان فيه ابو العلاء عصر ثائر فائر ، فبعد ان اشعلت « الفاطمية » القيروان والمغرب وافق دخول امامها ـ المعز لدين الله ـ مصر عام مولد المعري . وفي العقد الذي ولد فيه شيخ المعرة ودرج كانت جمعية اخوان الصفاء تزدهر وتنمو نمو الصبي (٩٧٠ ـ ٩٨٠) .

تأمل اي ثورات دينية واجتماعية وسياسية سبقت مولد هذا الغلام ، ورافقت حياته التي افتتحت بمحنة العمى . هبّت عليها اعاصير النكبات فاطفأتها ، ولكن نورها لم ينطفىء وانما تغلغل في اعماق تلك النفس البائسة فاستحالت منارة عالمية تشع انواراً خالدة ولا ينفد زيت حكمتها الازلية . ها نحن اليوم نمشط ـ كما قال احد ادبائنا المعروفين في دفاعه عن ادبه ـ رأساً

شمشونياً ، ونحمد الله على اننا لا نمشط رؤوساً قرعاء تعي المقص والموسى ولا تجد اسنان المشط فيها مجالا . . .

ان الفترة العلائية كانت زبدة الحقبة العربية ، وتركت في تاريخنا عصارة الفكر العربي . فما وثبت تلك الموجة البشرية من شط جزيرة العرب حتى غدت تياراً جارفاً القى الى اليابسة حيتاناً روّعت العالم . انفتحت عين العربي على نور الحضارة ففكت عقله من اغلال الصحراء وقيودها ففتق عن اكمام سرية . استنارت بصيرته ففكر في المسألة الخالدة المستعصية . كان العربي ساذجاً يصدق كل ما يسمع ، لم يكن يؤمن الا بملكوت الرغيف فلا يحسب لما وراء القبر حساباً ، يعيش طبقاً للآية التي وصفته : انما حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر . او كما قال الشاعر الجاهلي :

فدعني اروّي هامتي في حياتها

ستعلم ان متنا غداً ايّنا الصدي

كانت القبيلة فوق الجميع ، وكان العربي وهاباً نهاباً . فلما شعت انوار الدين الجديد آمن سكان المدر منهم ايماناً لا يعتوره شك ، فاندفعوا الى الفتوحات باسم الله العظيم ، فعضدهم سبحانه وتعالى وشد ازرهم بملائكة غضاب ، كما قال شوقي ، فحاربوا

معهم حتى غلب الحق وزهق الباطل . ما انفصل العربي عن صحرائه واستقر في العمران حتى علق يفكر . والحياة المستقرة مدعاة التفكر والتفلسف . رأى عالماً لم يكن يتخيل له وجوداً . كان في جاهليته كالطفل الذي يحسب ما تقع عليه عينه ، حول ضيعته ، كل الدنيا . عرف اديانا غير دينه الجديد المستحوذ على شعوره فاخذ يقابل ويقايس ويحلل ويعارض هذا الدين بتلك المذاهب ، واستوى منه علماء فتح اذهانهم كتاب الله العزيز الذي انزله على رسوله قرآناً عربياً . نظروا الى اشياء غيرهم فتذكروا قوله تعالى : لكم دينكم ولي دين . ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد فانبروا يجادلون اهل الكتاب ، ثم رأوا ان ذلك لا يكفي ففي الميدان اهداف واغراض لا بد من بلوغها والسعي لادراك بعضها ، فهناك كتب الاقوام والجماعات الدينية فيها ما يوافق الكتاب العزيز وفيها ما يعارضه ، ووقعوا على كتب انتجها العقل الانساني في عصوره المتقادمة ، كتب تدرس مسائل عويصة لا بد للمفكر من التأمل في معضلاتها ليهتدي الى فك اختامها فعكفوا عليها يتدارسونها . ورأوا علوماً لا عهد لهم بها يذهب المتبحّر فيها مذاهب شتى ، فهي تمس يقينه حيناً وتشككه احياناً . فهناك الطب والصيدلة

والكيمياء والحساب والهندسة والهيئة والحيل والتنجيم وغيرها ، علوم كلها تنخس العقل البشري المطمئن بمهماز الشك فيشرئب ويثب . رأوا حولهم علماء يفلسفون في اديانهم ولا يقبلون الامور على علاتها كما تعلمهم اياها اديانهم في كتبها المنزلة لان العقل يرفض الكثير منها ولا يسلم بها ولا يصدقها فنهجوا نهج اولئك العلماء . حاول فريق منهم — كما في كل ملة — ان يوفق بين الحكمة والدين ، وفريق آخر خلع نير الايمان وفكر تفكيراً حراً ادى به الى الكفر والالحاد فطاح سيف الامام برؤوس كثيرة ليردّ الامة الى حظيرة الاستسلام ، ولكن الدم لا يوقف تيار العقائد ولا يصده ، فهو كالفصاد يخفف الضغط ولكنه يعود .

كانت الثقافات المختلفة في تفاعل مستمر تخلق كل يوم جسماً جديداً ، فهناك ثقافة نصرانية سلاحها المنطق ورجالها معروفون فلسنا هنا نؤرخهم ولا نترجم لهم ، وثقافة يهودية ولاحبارها يد طولى في الشرح والتفسير والتأويل والاستنباط ، ولهم تلمودهم فغذوا الاذهان باساطيرهم وحكاياتهم فكان للمسلمين مثلها فيما بعد ، وكما انتظر اليهود مجيء المسيح ولا يزالون ، وكما يترقب النصارى المؤمنون المسيح الدجال ، ثم المسيح الفادي ليقتله عند ابواب

اورشليم المقدسة ، تولدت في اذهان الخاصة والكافة من المسلمين حكاية المهدي الامام المنتظر الذي وصفه ابن عربي فيما بعد بقوله :

« ان لله خليفة يخرج وقد امتلأت الارض جوراً وظلماً فيملأها قسطاً وعدلا . لو لم يبق في الدنيا الا يوم واحد طوّل الله ذلك اليوم حتى يلي هذا الخليفة من عترة الرسول يواطىء اسمه اسم رسول الله . . . وهو اجلى الجبهة ، اقنى الانف » الى آخر الاسطورة كما وردت في كتاب الفتوحات المكية .

وهناك الثقافة الفارسية وفيها كما في التوراة حكاية الخلق وما يليها من مبادىء وجدانية ، مبادىء يواجه بعضها بعضاً ، ويشبه بعضها بعضاً فتبري الشكوك وتدلهمّ ظلمات الظنون . وهناك المجوسية والزرادشتية والمانوية والمزدكية . وهناك ثقافة هندية قديمة الاجيال استمدت منها الاديان الجديدة بعض العناصر الغذائية . وهناك آراء ومذاهب لا نستطيع تفصيلها حتى ولا عدها ، فنحن لا نُعدّ لقارئنا سماطاً بل ما يقرب من السندوش .

ونظر العرب الى الكتاب العزيز فرأوا غمائم الشك تنتشر في الاجواء حتى بلغت القحة بزعيم المعتزلة ـ النظام ـ ان ينكر الاعجاز ويقول : ان القرآن معجز بالنسبة الى عصره ، ولكن من الممكن ان يتوصل البشر الى تأليف مثله . فهال هذا القول

العلماء المؤمنين فانبروا للدفاع والتأويل والتفسير ، وظهرت المذاهب الاربعة والسنّة والشيعة ، ثم تناسلت البدع والطرق فملأت الارض فكانت المعتزلة والرافضة والقدرية والجبرية والخوارج والمرجئة والمعطلة . ومن الشيعة التي هي اعظم ثورة فكرية في الاسلام ظهرت الزيدية والكيسانية والامامية والموسوية والاسماعيلية والفاطمية والسبئية والباطنية والمشبهة والحلولية والقرمطية والصوفية ، ومن كل فرقة اشتقت عشرات الفرق وهكذا دواليك الى ما لا آخر له .

وظل تفاعل هذه المبادىء مستمراً حتى قام الاشعري يحللها ، فكوّن منها مذهباً عرف باسمه واحبه كثيرون واتبعوه . اما الصوفية فظهر فيها ائمة لا يحصيهم العد ، وكلهم يحاولون التوفيق بين الدين والقلب . وذهبوا مذاهب غريبة ، فتعددت عندهم الطرق التي يزعم اصحابها انها تؤدي بهم الى الله ذاته لا الى ملكوته . كل واحد يزعم انه يقول الحق ، و « الله اعلم » كانت تفض اخيراً مشاكل الجميع .

في هذه الحقبة الثائرة المضطرمة وبعدها وجد ابو العلاء . جاء ابو العلاء وجميع هذه الآراء في طور النضج ولكنها لم تؤت ثمراً يؤكل ولا استقرت على ما يرتكز عليه عقل ذلك

الفتى فحاول ان يخلق منها جميعاً شيئاً واحداً بعينه . وكانت ثورات اجتماعية تغذيها فكر دينية ، فهناك القرامطة يغزون الشعوب المسلمة الآمنة ، ويهتكون المحارم باسم دعوتهم ، وهناك الفاطميون يدعون هؤلاء القرامطة الى الثوبان الى الحق والاخلاد الى السكينة مبينين لهم صدق الفاطمية ، وبطلان قرمطيتهم ، كما يتضح مما كتبه المعز الى زعيم القرامطة الحسن الاعصم يقول :

« فما من ناطق نطق ، ولا نبي بعث ، ولا وصي ظهر الا وقد اشار الينا ولوّح بنا ودل علينا في كتابه وخطابه ، ومنار اعلامه ومرموز كلامه فيما هو موجود غير معدوم ، وظاهر وباطن يعلمه من سمع النداء ، وشاهد ورأى من الملأ الاعلى . فمن اغفل منكم او نسي ، او ضل او غوى ، فلينظر في الكتب الاولى والصحف المنزلة ، وليتأمل في القرآن وما فيه من البيان ، وليسأل اهل الذكر ان كان لا يعلم ، فقد امر الله عز وجل بالسؤال فقال : فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون .

« ومع هذا فما من جزيرة في الارض ولا اقليم الا ولنا فيه حجج و« دعاة » يدعون الينا ، ويدلون علينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون « رجعتنا » ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بايامنا بتصاريف اللغات واختلاف الالسن . . . فيا ايها الناكث

الخائن ما الذي ارداك وصدك ؟ أشيء شككت فيه ام استربت به ، ام كنت خلياً من « الحكمة » وخارجاً عن « الكلمة » . . . حتى انقلبت على الادبار ، وتحملت عظيم الاوزار ، لتقيم « دعوة » قد درست ودولة قد طمست . انك لمن الغاوين وانك لفي ضلال مبين . »

وكانت الاقاليم والامصار تتذبذب بين تلك الدعوات تتحدث عنها – كما نتحدث نحن اليوم عن شؤوننا العظمى وحوادث دهرنا الجلّى ، عن البلشفية والنازية والفاشية ، وعن ظهور المسحاء ، فقلما خلت برهة من معتوهين يدّعون انهم ذاك المنتظر – وكان الناس عامتهم وخاصتهم للفاطمي المنتظر بالمرصاد . ينتظرونه ويروون عنه الغرائب ، كما يرقب الفلكيون مذنب هالي الذي تحدث عنه ابو تمام ، فيخافونه ويخافون منه على كرتهم الارضية ويخوفون الناس به ، والارض ما زالت ارضاً وعقول بنيها هي هي .

وفي ليلة من ليالي ذلك الدهر العابس المضطرب كان فريق من اهل المعرة في دار قاضيهم عبد الله بن سليمان – والد ابي العلاء – يتذاكرون اخبار الحوادث ومجرياتها في دولة

القاهرة الجديدة ، يتحدثون عن عظمة الملك الفاطمي في عهد المعز لدين الله ، وكيف نما هذا الملك وزها في عهد العزيز بالله ، وكيف حور الفاطميون وبدلوا حتى في الاذان ، فقالوا « حيّ على خير العمل » بدلا من « حيّ على الفلاح » . ثم جرى حديث « المهدي » ذلك الامام المنتظر : « فلا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من اهل البيت يؤيد الدين ، ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولي على الممالك الاسلامية ، ويسمى بالمهدي . ويكون خروج الدجال وما بعده من اشراط الساعة الثابتة في الصحيح على اثره ، وان عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال او ينزل معه فيساعده على قتله ، ويأتمّ بالمهدي في صلاته . » (مقدمة ابن خلدون ص ٣١١) .

فتذكروا عند هذا الحديث فقرة من كتاب المعز لدين الله الفاطمي الفاتح الى الزعيم القرمطي الثائر عليه الآنف الذكر . فانحرف مولانا القاضي الى صندوقة كانت الى يمينه فاخرج منها كراساً ودفعه الى احدهم فقرأ ما فيه على « الجماعة » ، وها نحن نورد منه ايضاً هنا ما يعني بحثنا هذا :

« فان اعتبر معتبر ، وقام وتدبر ما في الارض وما في الاقطار والآثار ، وما في النفس من الصور المختلفات ، والاعضاء المؤتلفات ،

والآيات والعلامات والاتفـاقات ، والاختراعات والاجنـاس والانواع ، وما في كون الابداع من الصور البشرية ، والاثار العلوية ، وما يشهد به حروف المعجم ، والحساب المقوم ، وما جمعته الفرائض والسنن ، ومـا جمعته السنون من فصـل وشهر ويوم ، وتصنيف القرآن من تحزيبه ، واسباعه ، ومعانيه ، وارباعه ، وموضع الشرائع المتقدمة ، والسنن المحكمة ، وما جمعته كلمة الاخلاص في تقاطيعهـا وحروفها وفصولها ، وما في الارض من اقليم وجزيرة وبر وبحر وسهـل وجبـل وطول وعرض وفوق وتحت ، الى ما اتفق في جميـع الحروف من اسمـاء المدبرات السبعة والايام السبعة النطقاء ، والاوصياء والخلفاء ، وما صدرت به الشرائع من فرض وسنّة وحدود ، وما في الحساب من آحاد وافراد وازواج واعداد ، تثاليثه وترابيعه ، واثنا عشريته وتسابيعه ، وابواب العشرات والمئين والالوف ، وكيف تجتمع وتشتمـل على ما اجتمع عليه ، وما تقدم من شاهد عدل ، وقول صدق ، وحكمة حكيم ، وترتيب عليم . . . وليعلم من الناس من كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ، اننا كلمات الله الازليات ، واسماؤه التامات ، وانواره الشعشعانيـات ، واعـلامه النيّرات ، ومصابيحه البيّنات ، وبدايعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، واقداره

النافذات ، لا يخرج منا امر ، ولا يخلو منا عصر ، وإنما لكما يقول سبحانه وتعالى : ما يكون نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم .

« فاستشعروا النظر ، فقد نقر في الناقور ، وفار التنور ، واتى النذير بين يدي عذاب شديد ، فمن شاء فلينظر ، ومن شاء فليتدبر ، وما على الرسول الا البلاغ المبين . . . وكتبنا هذا من فسطاط مصر ، وقد جئناها على قدر مقدور ، ووقت مذكور ، فلا نرفع قدماً ، ولا نضع قدماً الا بعلم موضوع ، وحكم مجموع ، واجل معلوم ، وامر قد سبق ، وقضاء قد تحقق . »

فلما بلغ القارىء هذا الكلام كبّر السامعون وقال قاضيهم الجليل : حقاً ان امر سادتنا الفاطميين يدعو الى التفكير والتأمل والتذكر ، فما نصرهم الا من الله . فأمّن الشيوخ الآخرون على كلامه .

وكان الفتى — أبو العلاء — يسمع هذه الاحاديث وما يجول فيها من مناقشات ومذاكرات ، ومذاكرات الرجال لقاح

الالباب . كان الفتى يفكر اكثر من اولئك الشيوخ ، كان يقبع في زاوية من مجلس ابيه يسمع ويعي ، ويظل في بحران مستمر ، وينتظر تلك الساعات التي يعمر فيها المجلس ، ويكثر فيها الجدل حول المذاهب المنتشرة انتشاراً ذريعاً فتشغل عقله في وحدته وتستبد بذهنه حتى تصبح منه كالفكرة الثابتة . انه وجد في زمن سداه ولحمته الجدل ، وخير كلمة تصف لنا ذلك العصر الحافل بالآراء المتضاربة هي التي كتبها الذهبي في حوادث سنة ٩٨٢ اي حين كان ابو العلاء ابن تسع او عشر ، قال : « في هذا الزمان كانت الاهواء والبدع فاشية بمثل بغداد ومصر من الرفض والاعتزال . فانا لله وانا اليه راجعون . »

وقال غيره : « سمعت أبا محمد ابن أبي زيد الفقيه يسأل أبا عمر ابن سعدى عند وصوله الى القيروان من بلاد المشرق ، فقال : هل حضرت مجالس اهل الكلام ؟ قال : نعم ، مرتين ولم أعد اليها . قال : ولماذا ؟ فقال : اما اول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرق من السنة والشيعة والكفار واليهود والنصارى والدهرية والمجوس ، ولكل فرقة رئيس يتكلم ويجادل عن مذهبه . فاذا جاء رئيس قاموا له كلهم على اقدامهم حتى يجلس . فاذا تكاملوا قال قائل من الكفار : قد اجتمعتم

للمناظرة فلا يحتج احد بكتابه ولا بنبيه ، فاننا لا نصدق ذلك ولا نعتد به ، واننا نتناظر بالعقل والقياس . فيقولون : نعم . ولما سمعت ذلك لم اعد .

« ثم قيل لي : هذا مجلس آخر للكلام . فذهبت اليه ، فوجدتهم على مثل سيرة اصحابهم ، فقطعت مجالس اهل الكلام . . »

في هذا العصر وجد الفتى ابو العلاء ، وكان بيت ابيه صورة مصغرة عن تلك المجالس ، وان لم تبلغ ما بلغته تلك المجالس التي حدثناك عنها ، فكان الفتى يسمع تلك المشاحنات صغيراً ، وكان يلفت سمعه شيخ من شيوخ مجلس ابيه حر التفكير اكثر من نظرائه ، يدس كلامه دساً ، ثم يتعوذ بالله متبرئاً من ذلك الكلام وقائليه . فكان ابو العلاء يرتاح الى كلامه ويتمنى لو يتاح له ان ينفرد به ساعة عندما يكون والده جالساً للمظالم ، ليسأله عن قضايا تملأ دماغه . ولكن الاعمى غير مستطيع ، فليصبر اذن حتى يؤذن الله بذلك . . .

وسأل الفتى احدهم عن ذلك الشيخ فاجابه انه عابر في البلد يختلف اليه بين آونة واخرى ، فتأوه وسكت .

وسمع الفتى الحديث الذي رووه عن « الامام المنتظر » ، وفكر في ذاته لعله يكون هو ذاك الامام . فاخذ يقلب كلامهم على جميع وجوهه ، فوجد ان اسمه يواطيء تماماً اسم رسول الله ، فهو احمد بن عبد الله . وضرب يده الى ارنبة انفه فما رأى انفه اقنى ، وأمرّ يده على جبهته فما وجدها كما وصفوا جبهة الامام ، فقال في نفسه : قاتل الله الجدري ، فلو كان مستطيعاً للبس قناعاً كما فعل المتمهدي الكذاب . . . وهناك عائق اعظم خطراً من كل هذا ، فهو تنوخي من قضاعة وقضاعة من قحطان . اذن فلينبذ الفكرة وان كان لا بد من شيء فليكن غير هذا . فعدّى عن هذه الفكرة وان قال : واني وان كنت الاخير زمانه . . .

بيد ان هذا الامام المنتظر قد اعجبه جداً ، وترجّى ان يظهر ويطهر الارض التي يرى ما فيها من فساد . فمال الى حيث يرتجى ان يبزغ الامام المهدي ، واخذ يغذي شعره الصبياني بتلك الفكرة ، ففات المتنبي في الغلو والايغال . وارتحل بعدما فجع بموت ابيه الى انطاكية واللاذقية يطلب علم ما وراء الطبيعة فعاد منها وحكايات النصارى والمجوس واليهود والمسلمين تتفاعل في عقله فكان له منها عنصر جديد فقال :

في اللاذقية ضجة
ما بين احمد والمسيح
قس يعالج دلبة
والشيخ من حنق يصيح
كل يصحح دينه
يا ليت شعري ما الصحيح

ثم استحال هذا الجسم الكيماوي الجديد الى جسم آخر ما زلنا حائرين في تحليله وردّه الى مواده الاولى . انه يعصي علينا ، واذا استجاب لنا من جهة حيرنا من جهات اخرى كما تحير هو قبلنا فقال :

والذي حارت البرية فيه
حيوان مستحدث من جماد

اجل ، ان ابا العلاء هو ذلك الرأس المحير الذي نمشطه اليوم ، فيخرج النور من تحت اسنان المشط فتوقد بين الشعر نار الحباحب .

كان ابو العلاء ينصرف الى الشطرنج واللهو في خانات المعرة ليريح باله من شكوكه ولكن فكرته لا تفارقه ، فهو حائر بين هذه المذاهب جميعها ، فهل من حل لهذه المعضلة ؟

وفيما كان يفكر ذات يوم في الاحداث السياسية وما يروى من الاخبار والآراء العجيبة الغريبة المتضادة عن « الفاطمي » – الحاكم بامر الله – الذي ولي الحكم صبياً تحت كنف الاوصياء ، ثم اشتد ساعده فاستبد بهم وبه ، ودانت لهيبته اعاظم الرجال في دولته ، وخرّت لها جبابرتها ساجدة . كان يفكر عصر النهار في تلك المعضلات المستعصية على الحل فذهل عن العشاء ولكن خادمه نبهه الى ذلك فتعشى وعاد الى تفكيره .

وفيما هو كذلك اذا ببابه يقرع ففتح ودخل شيخ ومعه شيخ آخر يسأل ابا العلاء خلوة به . فعرفه ابو العلاء من صوته بعد سنين ، وذكر انه الشيخ الذي كان يلفت سمعه في مجلس ابيه . فصرف الضرير خادمه ليخلو له المكان بزائريه الكريمين .

وبدت على وجه أبي العلاء المتجهم امارات الاستئناس ، وكانت جلسة طويلة تلتها جلسات اطول ، واليك خبرها :

دعوة ابي العلاء

١

كانت تشغل بال ابي العلاء اخبار المعز لدين الله الفاطمي الذي دانت له مصر على يد قائده جوهر، وكان دوي تلك الكلمة التي سمعها المعري من ابيه عن هؤلاء الفاطميين لا يزال في اذنيه، فهو دائم التفكر بها. وزاده هياماً بهم ما رواه احد المحدثين عن المعز، انه دعا عدة من شيوخ كتامة في يوم بارد فرأوه في مجلس مفروش باللبود وحوله كساء وعليه جبّة، وحوله ابواب مفتحة تفضي الى خزائن كتب، وبين يديه دواة وكتب، فقال: «يا اخواننا، اصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد، فقلت لأم الامراء، وانها الان بحيث تسمع كلامي: أترى اخواننا يظنون اننا في مثل هذا اليوم نأكل

ونشرب ونتقلب في المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء كما يفعل ارباب الدنيا ؟ ثم رأيت ان انفذ اليكم فاحضركم لتشاهدوا حالي اذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ، واني لا افضلكم في احوالكم الا بما لا بد لي منه من دنياكم وبما خصني الله به من امامتكم ، واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب اجيب عنها بخطي ، واني لا اشتغل بشيء من ملاذ الدنيا الا بما يصون ارواحكم ويعمر بلادكم ويذل اعداءكم ويقمع اضدادكم ، فافعلوا ، يا شيوخ ، مثل ما افعله ، ولا تظهروا التكبر فينزع الله النعمة عنكم ، وينقلها الى غيركم ، وتحننوا على مَن وراءكم ممن لا يصل الي كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل ، واقبلوا بعدها على نسائكم والزموا « الواحدة » التي تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فينغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا ابدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ، ونحن محتاجون الى نصرتكم بابدانكم وعقولكم . واعلموا انكم اذا لزمتم ما امرتكم به رجوت ان يقرب الله بكم علينا امر المشرق كما قرب امر المغرب بكم . انهضوا رحمكم الله ونصركم . »

كان ابو العلاء في ذلك المساء يفكر بهذا الكلام الذي رأى فيه دستوراً جديداً لم يسمع بمثله عن حياة الملوك في كل عصر فتمنى الاتصال بمثل هؤلاء الائمة والقادة الذين ينهجون للناس نهجاً جديداً قويماً فهاجت قريحته فقال :

مل المقام فكم اعاشر امة
امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وسمع من الكثيرين عن الحاكم بامر الله وتعففه عن مال الرعية ، والزهد في المال عموماً ، وقابل في نفسه بين الحاكم وبين الذين حكموا ويحكمون « العواصم » فازداد تعلقاً بهذه الدولة الفتية التي اسستها هذه السلالة العريقة .

وبلغه خبر مرسوم الحاكم الذي يمنع فيه النساء من مغادرة دورهن والخروج الى الطرقات بالليل والنهار ، ولم يستثن من ذلك سوى النساء المتظلمات للشرع والخارجات الى الحج ، أو المسافرات اللواتي تضطرهن ظروف قاهرة الى السفر ، والاماء اللاتي برسم البيع ، والقابلات ، وغاسلات الموتى ، والارامل اللاتي يبعن الغزل ، وان يكون خروج هؤلاء لمزاولة شؤونهن

برقاع خاصة ترفع الى القصر ، وتصدر بها « تصاريح » يقوم بتنفيذها مدير الشرطة . ومنع النساء من دخول الحمامات العامة ومنع الاساكفة من عمل اخفافهن . وامر الباعة ان يحملوا السلع والاطعمة ، وكل ما يباع في الاسواق الى الدروب ويبيعوه من النساء في منازلهن ، وان يحمل الباعة اداة كالمغرفة لها ساعد طويل يمد الى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ما تشتريه فتتناوله وتضع مكانه الثمن ، ولا يسمح لها مطلقاً ان تبدو من وراء الباب .

وبلغ المعري ايضاً خبر تحريم الحاكم النبيذ وغيره من الخمور. حتى منع بيع الزبيب والعنب والعسل الا ثلاثة ارطال فما دونها ، او لمن لا تتجه اليه مظنة اتخاذه مسكراً . وكانت عقوبات المخالفين تختلف بين التشهير والجلد واحياناً الاعدام .

وازداد اعجابه به اذ سمع عنه انه عندما حرم النبيذ وامر باتلاف الكروم والزبيب والعسل تقدم الى قاضي القضاة شخص اتلفت بضاعته من الزبيب والعسل ، وادعى على الحاكم بانه اتلف ماله الحلال بغير حق ، وانه لم يحرز الزبيب والعسل لصنع الخمر وانما لصنع الحلاوة فقط ، وطالب الحاكم بان يعوض له ما اتلف من ماله وقيمته الف دينار ، فقبل الحاكم الخصومة

وطلب ان يحلف التاجر على صدق دعواه ، وانه انما احرز هذه البضاعة لصنع الحلاوة فقط ، فحلف التاجر وحكم له بماله ، وادى له الحاكم ما طلب .

فتهلل وجه ابي العلاء لهذا النبأ وعرف ان في الدنيا نوراً جديداً ، كما قال والده منذ اعوام ، ولا بد لذوي الصلاح في هذه الارض من مناصرته ليظل يهدي الناس .

ثم تذكر ما يتحدث الناس به عن زهد الحاكم وتقشفه وتواضعه ، واحتقاره الرسوم والالقاب الضخمة ، وكيف استعاض عن الثياب البيضاء بثياب سود ، فكان يرتدي جبة من الصوف الاسود العادي ، وقد يرتدي جبة مرقعة من سائر الالوان ، وكيف كان يرتفع عن مفاسد هذا المجتمع وعن غرائزه هو وشهواته النفسية الوضيعة ، حتى اضرب عن جميع الملاذ الحسية والنفسية فأطلق نساءه وجواريه ، ومنهن من غرّقهن . واقتصر في طعامه على ابسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع . وبالاختصار جذبته شخصية الحاكم بامر الله الفذة ورأى فيه رجلا نقياً فآثره وبايعه في ضميره ولاسيما اذ علم انه ينظر الى الاديان كلها نظرة واحدة .

كل هذه الشؤون كانت تشغل عقل المعري حين دخل عليه

الشيخان ، كما تقدم . وبعد التحية والسلام قال له الشيخ الذي لا عهد له بصوته :

— بلغني ان الشيخ ، ايده الله ، من رجال الكلام وليس يقبل الامور على علاتها ، وان عينه الثاقبة تخترق حجب « الظاهر » لتبلغ « الباطن » وتستجلي غوامضه وتقف على اسراره .

فاجابه المعري : ليت لي عيناً تبصر فارى من يحدثني فأقرأ على الوجوه ما قد تخفيه الصدور ولا ينم عنه اللسان .

العمى مصيبة ياشيخي الاجلّ ، ولو اقلعت عن ذكره عندي لرحمتني ، ان ذكره يؤذيني ويؤلمني .

فقال الداعي : عفواً ايها المختار ، لا يعز عليك ذلك فانها محنة تذهب وحالة تتبدل .

فردد المعري في نفسه : محنة تذهب ، حالة تتبدل ! كلام غريب . قال هذا وسكت ولم يستفسر عن شيء ، ولكنه ظل يلوكها في فكره ولا يستسيغها . فقال الداعية : سمعنا لك شعراً قلته في: ابي ابراهيم موسى بن اسحق :

وعلى الدهر من دماء الشهيدين

علي ونجله شاهدان

يا ابن مستعرض الصفوف ببدر
ومبيد الجموع من غطفان
احد « الخمسة » الذين هم الا
غراض في كل منطق والمعاني
والشخوص التي خلقن ضياء
قبل خلق المريخ والميزان
قبل ان تخلق السموات او
تؤمر افلاكهن بالدوران
يا أبا ابراهيم قصّر عنك الشعر
لما وصفت بالقرآن
اشرب العالمون حبك طبعاً
فهو فرض في سائر الاديان
بان للمسلمين منك اعتقاد
ظفروا منه بالهدى والبيان

وقد سمعنا ببيت آخر قلته لاحد رجال هذه العترة الطاهرة
وزادنا لك استحساناً زادك الله عرفاناً ، قلت :

كأنما سر الاله الذي
عندك دون الناس يستكتم

فجئناك لا لنزيدك اتصالا بنا فانت منا . جئناك بل امرنا « مولانا » ان نأتيك ونلقي اليك باسرار دعوتنا التي رأيناك ، بالعلم ، مدعواً اليها . قد جرت عادة الله وسنته في عباده عند شرع من نصبه ان يأخذ العهد على من يرشده ولذلك قال : « واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » ومن امثال هذا ، فقد اخبر الله تعالى انه لم يملك حقه الا لمن اخذ عهده ، فاعطنا صفقة يمينك ، وعاهدنا بالمؤكد من ايمانك وعقودك على ان لا تفشي لنا سراً ولا تظاهر علينا احداً ولا تطلب لنا غيلة ، ولا تكتمنا نصحاً ولا توالي لنا عدواً .

وكان يسمع المعري بفم مفتوح نصف فتحة ، يريد ان يكشف له هذا السر ولا يريد ان يحلف قبلما يعلم . ورأى الداعية تردده فقال له : اعطنا جعلاً من مالك نجعله مقدمة امام كشفنا لك الامور وتعريفك اياها . فأدخل ابو العلاء ، وهو لا يدري ما يفعل ، يده في جيبه ، فوضع يده عليها ذلك الشيخ الذي سمع صوته منذ سنين وقال له : قد عرفتك صبياً ، عندما دعوت اباك ، فلا تُخرج شيئاً . مثلك لا تؤخذ منه « النجوى » .

فانتفض المعري وقال : وما النجوى ؟

فاجابه شيخه : رسم اختياري يؤديه المؤمنون . فصاح المعري : اما كفانا ايماننا العتيق حتى تريد حملنا اثقالا عنيفة ؟

فقال الداعي : يراد بكلمة المؤمنين هنا من يعتقدون معتقدنا ويناصرون دعوتنا ، فلندع هذه المجادلات العرضية وتهيأ لاخطر منها وأجلّ شأناً .

وتنحنح الشيخ الداعي واحكم جلسته وقال بصوت فخم : اعلم يا احمد بن عبد الله ، يا أخانا الذي انتدبنا « مولانا » للاتصال به ، والبوح له بجميع اسرار دعوتنا معتمدين على نبله وشرفه ، اعلم ايها المستجيب ان الناس قلدوا سفلتهم واطاعوا سادتهم وكبراءهم اتّباعاً للملوك وطلباً للدنيا التي هي في ايدي متبعي الاثم واجناد الظلمة ، واعوان الفسقة الذين يحبون العاجلة ويجتهدون في طلب الرئاسة على الضعفاء ومكايدة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في امته وتغيير كتاب الله عز وجل وتبديل سنّة رسول الله (صلعم) ، ومخالفة دعوته وافساد شريعته ، وسلوك غير طريقته ومعاندة الخلفاء والائمة من بعده . اعلم ان دين محمد (صلعم) ما جاء بالتحلي ولا بأماني الرجال ولا شهوات الناس ولا بما خف على الالسنة وعرفته دهماء العامة ، ولكنه صعب مستصعب ، وامر مستقبل وعلم خفي ، ستره الله في

حجبه وعظم شأنه عن ابتذال اسراره ، فهو سر الله المكتوم وامره المستور الذي لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله الا ملك مقرب ، او نبي مرسل ، او عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى .

فهز ابو العلاء كتفيه كأنه لم يسمع من داعيه شيئاً جديداً ثم قال له ضاحكاً : اعلى هذا جئت تحلفني يا شيخ ؟

فأجابه الداعية : لا يا احمد بن عبد الله ، اسمع الآن . لا تستعجل . فكّر معنا : ما معنى رمي الجمار ، والعدو بين الصفا والمروة ، ولمَ كانت الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ، وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير ، ولا يغتسل من البول النجس الكثير ؟ وما بال الله خلق الدنيا في ستة ايام ، أعجز عن خلقها في ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلاً والكاتبين الحافظين ؟ وما لنا لا نراهما ! أخافَ ان نكابره ونجاحده حتى ادلى العيون ، واقام علينا الشهود وقيّد ذلك في القرطاس بالكتابة ؟ وما تبديل الارض غير الارض ، وما عذاب جهنم ؟ وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب ؟ وما معنى : ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ؟ وما ابليس وما الشياطين وما وصفوا به ،

وأين مستقرهم وما مقدار قدرهم ؟ وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت واين مستقرهم ؟ وما سبعة ابواب النار وما ثمانية ابواب الجنة ، وما شجرة الزقوم النابتة في الجحيم ، وما دابة الارض ورؤوس الشياطين والشجرة الملعونة في القرآن ، والتين والزيتون ، وما الخنّس الكنّس ، وما معنى الم ، وكهيعص ، وحم عسق ، ولمَ جعلت السموات سبعاً والارضون سبعاً ، والمثاني في القرآن سبع آيات ، ولمَ فجّرت العيون اثنتي عشرة ، ولمَ جعلت الشهور اثني عشر شهراً ، وما يعمل معكم علم الكتاب والسنّة ومعاني الفرائض اللازمة ؟

فكروا اولا في انفسكم ، اين ارواحكم وكيف صورها واين مستقرها وما اول امرها . والانسان ما هو ، وما حقيقته ، وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ، وفضل ما بين حياة البهائم وحياة الحشرات ، وما الذي بانت به حياة الحشرات من حياة النبات . وما معنى قول رسول الله (صلعم) : خلقت حواء من ضلع آدم . وما معنى قول الفلاسفة : الانسان عالم صغير والعالم انسان كبير ، ولمَ كانت قامة الانسان منتصبة دون غيره من الحيوانات . ولمَ كان في يديه من الاصابع عشر وفي رجليه عشر ، وفي كل اصبع من اصابع يديه ثلاثة

شقوق الا الابهام فان فيه شقين فقط . ولِمَ كان في وجهه سبعة ثقب وفي سائر بدنه ثقبان ، ولِمَ كان في ظهره اثنتا عشرة عقدة وفي عنقه سبع عقد . ولِمَ جُعل عنقه صورة ميم ، ويداه حاء ، وبطنه ميماً ، ورجلاه دالا ، حتى صار كتاباً مرسوماً يترجم عن محمد . ولِمَ جعل اذا انتصبت قامته صورة الف ، واذا ركع صارت صورة لام ، واذا سجد صارت صورة هاء ، فكان كتاباً يدل على الله . ولِمَ جعلت عظام الانسان كذا ، واعداد اسنانه كذا ، والاعضاء الرئيسية كذا ، الى آخر ما هنالك من عروق واعضاء ، ووجوه ومنافع الحيوان؟ ثم قال : فلنفكر في حالنا ونعتبر ونعلم ان الذي خلقنا حكيم غير مجازف ، وانه فعل ذلك لحكمة وله فيها اسرار خفية حتى جمع ما جمع وفرّق ما فرّق . كيف يسعنا الاعراض عن هذه الامور والله تعالى يقول : سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى نبين لهم انه الحق . فأي شيء رآه الكفار في انفسهم وفي الآفاق حتى عرفوا انه الحق ؟ واي حق عرفه من جحد الديانة ؟

ألا ترى انّا جهلنا انفسنا التي من جهلها كان حرياً ان لا يعلم غيرها ؟

فتنهد ابو العلاء وقال : هذا ما يشغل بالي ، لا بل حرمني النوم . أين كنتما فلم تأتيا لتفريج كربتي وتبديد حيرتي ? لا نوم الليلة . . .

وطال الجدال بينهم وطلب ابو العلاء الاستزادة فلم يزده الداعي ، وضرب له موعداً الليلة القادمة ، وانصرف الشيخان من عنده بعدما اكلا التين والفستق .

٣

قال ابو العلاء للشيخين لا نوم الليلة ، ولكن الشيخين ناما نوماً هادئاً مطمئناً لان فوزهما كان عظيماً . اما نظما في سلك الدعوة اثمن درة كانت واسطة العقد الخالدة ? اما شيخ المعرة فبات وباتت له ليلة دونها ليلة الذبياني . انه لا يعنيه راعي النجوم كالنابغة فسيان عنده غاب او آب ، الظلم مسارح الافكار والليل اخفى للويل . لقد طار نوم ابي العلاء فاستيقظت قريحته ، القى رأسه على مخدته فتواردت عليه الخواطر فطفق يهمهم ويدمدم . يردد الفاظاً معلومة يقلبها على جميع وجوهها . ظل يفعل ذلك حتى غفا قبيل الصبح بقليل . ولم يستيقظ « المدعو » العظيم الا على اذان العصر ، وهو يحسبه اذان الفجر ،

فتغدى وعاد الى ابيات شعره ينقحها ويهذبها ، وكان بين آونة واخرى يصيح بخادمه : ماذا من النهار يا غياث ، اين صارت الشمس ؟ وكان الخادم يتعجب من حال سيده فما تعوّد منه هذه الاسئلة .

ولما اذن المغرب امر غياثاً ان يهيء شيئاً يتنقل به . وجاء الشيخان في ميعادهما فرحب بهما ابو العلاء اجمل ترحيب واحرّه ، وكانت مقدمة قصيرة ناقش فيها شيخيه ، واخيراً عرض عليهما ابياته التي نظمها امس بعد ذهابهما :

عجبت لكسرى واشياعه
وغسل الوجوه ببول البقر
وقول اليهود اله يحب
رشاش الدماء وريح القتر
وقول النصارى اله يضام
ويُظلم حقاً ولا ينتصر
وقوم اتوا من اقاصي البلاد
لرمي الجمار ولثم الحجر
فيا عجباً من مقالاتهم
أيعمى عن « الحق » كل البشر

فكبر الشيخان تكبيراً خطيراً اقلّ من وقارهما ، وحار في تعليله جيران الضرير . ان كلمة « الحق » كان لها في اذنيهما دوي دونه دوي قنابل اليوم ، اما ابو العلاء فابتسم على غير عادته ابتسامة فارهة ، واعجبه جداً استحسانهما ، واطربه تناؤهما ، فتمادى في حريته الفكرية ولم يحدّ من مداها كعادته ، فهو واثق بمن يخاطب . فتح لهما صدره المحشو شكوكاً ووساوس فقال لهما : اسمعا ماذا قلت في رثاء المغفور له اخيكم والدي :

فيا ليت شعري هل يخف وقاره
اذا صار احد في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروي مبادراً
مع الناس ام يخشى الزحام فيستأني

فتناظر الشيخان واهتزت لحيتاهما كما تهتز صفصافة مر بها هواء غير مهتاج ، اما ابو العلاء فقال :

طلبت يقيناً من جهينة عنهم
ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهديني لا ازال مسائلا
فاني لم اعط الصحيح فأستغني

فصاح الشيخان : رحى لك يا احمد ، وقال له الداعي : لقد

خلقت منا ، ولا نظن انا نزيدك علماً ، ومع هذا سيأتيك يقيننا .

فقال ابو العلاء : استغفر الله ، استغفر الله . واطرق قليلاً ثم قال : عندي ثلاثة ابيات أخر اظن انها تعجبكم ، وانشد :

ريب الزمان مفرّق الالفين

فاحكم الهي بين ذاك وبيني

أنهيت عن قتل النفوس تعمداً

وبعثت انت لقتلها ملكين

وزعمت ان لها معاداً ثانياً

ما كان اغناها عن الحالين

فصفق الشيخان حتى كادا ان يخرجا من جلدهما ، كما عبّر الجاحظ . ادركا ان مدعوهما سبّاق قد لا يبلغ داعي الدعاة غايته ، فقال له الداعي : يا اخانا ، ابا العلاء ، كان في نيتنا ان نلقي اليك بالدعوة اقساطاً لانها تسع مراتب ، ولكننا وجدناك في المرتبة العليا فطرة وغريزة فرأينا ان تضيع الوقت اثم ، فوجب علينا ، والحالة هذه ، ان نراعي استجابتك لنا ونلقي دعوتنا عليك تباعاً الليلة ، فلعلك تدعو غيرك الى الحظيرة فيشد ازرنا بك . اعطنا الان صفقة يمينك .

فمد ابو العلاء يمينه معاهداً على كتم السر الذي اتعبه حمله طول الحياة ومات ولم يبح به لاحد حتى ولا لداعي الدعاة المؤيد في الدين — ابي نصر هبة الله بن موسى — الذي تصدى له في آخر العمر ، كما يعلم كل من له المام بادب المعري . ولكن الداعي عرف صاحبه فكان سكوت ، وكفى الله المؤمنين القتال .

ووجم ابو العلاء بعد اعطاء صفقة يمينه ، واطبق شفتيه اطباقة صارمة تنم عن تصور وتصميم ، ثم التفت الى الناحية التي يأتيه منها الصوت ، فقال الداعي : اعلم يا احمد ان لكل عصر اماماً ولا بد للناس من امام يأخذون عنه . ثم افاض في شرح جميع الرموز التي سأله عنها البارحة فاذا هي — في عرفهم — دلالة صارخة على « قائم الزمان الاخير » . ثم انتقل به الى شرح شعائر الاسلام من الصلاة والزكاة والطهارة وغير ذلك من الفرائض ففسرها بامور مخالفة للظاهر . وتنحنح الداعية وسعل بشكل اهتز له ابو العلاء ، وسكت الشيخ قليلاً ثم قال : اعلم يا احمد بن عبد الله ، ان هذه الاشياء وضعت على جهة الرموز لمصلحة العامة وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغي بعضهم على بعض ، وتصدهم عن الفساد في الارض .

هي حكمة من الناصبين للشرائع وقوة في حسن سياستهم لاتباعهم ، واتقان منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك .

ونظر الداعي الى أبي العلاء التفاتة مستنطق يقرأ اسرار الصدور على صفحات الوجوه ، فأدرك ان ابا العلاء يعتقد كل الاعتقاد ان احكام الشريعة كلها موضوعة على سبيل الرمز لسياسة العامة . وان لها — او ليس لها — معاني أخر غير ما يدل عليه الظاهر . فاسرع الداعي به ونقله الى الكلام في الفلسفة وحثه على النظر في كلام افلاطون ، وارسطو ، وفيثاغوروس ، ومن في معناهم ، ونهاه عن قبول الاخبار ، والاحتجاج بالسمعيات ، وزين له الاقتداء بالادلة العقلية والتعويل عليها .

فرد عليه ابو العلاء بابتسامة نصف ساخرة حين سمعه يحضه على التبصر بكلام الفلاسفة ، وكأنه يقول له ما قاله ذلك الرجل السائل المسيح عما يعمل ليرث ملكوت السموات .

فتوقف الداعي واخذ ينظر الى رفيقه ، وابو العلاء لا يدري لماذا سكت ، ولكنه عرف ان هناك سبباً فقال لداعيه : ما خطبك ؟ فاجابه الداعي : ان الانتقال الى الدعوة السابعة يقتضي زمناً طويلا . فصاح به ابو العلاء : ان عقل من تدعوه

اكبر بكثير من الزمن الطويل الذي تريد ، هلم بنا ، عجل
عليّ فلست اصبر .

فقال الشيخ الذي عرفه ابو العلاء منذ سنين ، في حضرة
ابيه ، موجهاً كلمته الى شيخه : يا مولانا ، ان الرجل كما
سبق وقلت ، يفوتنا في اعتقاده ، ولولا يقيني هذا ما دعوتك
من مصر لتقوم بدعوته وتسمع باذنك وترى بعينك . لا بأس
علينا ان فعلنا . سر به الى المرتبة السابعة ولننجز عملنا الليلة .
لا شك في ان « دار الحكمة » ستكون راضية عنا ، ومولانا ،
صلى الله عليه وسلم ، يكون مغبوطاً ويبارك عملنا . نحن
ندعو الان « حجة » لا مستجيباً ، وسيكون لهذا الحجة اعظم
شأن في تاريخ الدعوة .

فتوكل الداعي الاكبر على ربه وقال : اسمع ايها الاخ ،
ان صاحب الدلالة والناصب للشريعة لا يستغني بنفسه . ولا
بد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون احدهما الاصل ، والآخر
عنه كان وصدر ، وهذا انما هو اشارة العالم السفلي لما يحويه
العالم العلوي ، فان مدبر العالم ، في اصل الترتيب وقوام
النظام ، صدر عنه اول موجود بغير واسطة ولا سبب نشأ
عنه . واليه الاشارة بقوله تعالى : « انما امره اذا اراد شيئاً ان

يقول له كن فيكون » اشارة الى الاول في الرتبة . والاخر هو القدر الذي قال فيه : « إنّا كل شيء خلقناه بقدر » وهذا معنى ما نسمعه من ان الله اول ما خلق القلم فقال للقلم اكتب ، فكتب في اللوح ما هو كائن .

فافتكر ابو العلاء هنيهة واخذ الداعي يحدق نظره اليه ليرى ما يكون من شأنه . فاذا بأبي العلاء يقول : وهذا اعرفه ايضاً يا شيخي الجليل ، فقد قال الفلاسفة : الواحد لا يصدر عنه الا واحد .

فصاح به الداعي : مد يدك لنتصافح ، ونتبايع ، فانت شيخي ايضاً كما انا شيخك ، وهلم بنا الى المرتبة الثامنة .

اما الشيخ الذي عرفه ابو العلاء منذ سنين فدمعت عيناه ، وقال الداعي : ان تقدم مدبر الوجود على الصادر عنه انما هو تقدم السابق على اللاحق ، والعلة على المعلول ، فكانت الاعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثاني بترتيب معروف . ومع ذلك يا احمد ، فالسابق لا اسم له ولا صفة ، ولا يعبر عنه ولا يقيد . لا يقال هو موجود ولا معدوم ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ، وكذلك سائر الصفات . فالاثبات يقتضي الشركة بينه وبين المحدثات ، والنفي يقتضي التعطيل . انه

ليس بقديم ولا محدث ، بل القديم امره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته .

وقال الداعي : ان « التالي » يدأب في اعماله حتى يلحق بمنزلة « الصامت » ، وان « الصامت » في الارض يدأب في اعماله حتى يصير بمنزلة « الناطق » وحاله سواء .

حاشية — اريد ان اذكر القارىء بقول عريس الدهور :

ارادوا منطقي واردت صمتي .

وان الداعي يدأب في اعماله حتى يبلغ منزلة « السوس » وحاله سواء . وهكذا تجري امور العالم في « اكواره » و « ادواره » .

وبان في وجه ابي العلاء اطمئنان كثير عندما انتهى به الداعي الى هنا . ثم جمز الداعي جمزة كبرى فقال : ان معجزة النبي الصادق الناطق ليست غير اشياء تنتظم بها سياسة الجمهور وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة يحوي معاني فلسفية تنبىء عن حقيقة آنية السماء والارض وما يشتمل عليه العالم باسره من الجواهر والاعراض ، فتارة برموز يعقلها العالمون ، وتارة بافصاح يعرفه كل احد فينتظم بذلك للنبي شريعة يتبعها الناس .

اسمع ايها الاخ الاكبر المستجيب . فأصغى ابو العلاء كل الاصغاء حتى حبس انفاسه فقال داعي الدعاة : ان القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها سوى ما يفهمه العامة وغير ما يتبادر الذهن اليه . وليس هو الا حدوث « ادوار » عند انقضاء ادوار من ادوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع .

ولما رأى الداعي ان تلميذه يقبل قبولا لا شك فيه ما دعاه اليه طار به الى القمة ، اي الى الدعوة التاسعة ، فقال له : قد صرت اهلا لكشف السر والافصاح عن الرموز ، فاعلم ان ما ذكر من الحدوث والاصول رموز الى معاني المبادىء وتقلب الجواهر . وانما الوحي هو صفاء النفس يا ابن عبد الله ، فيجد النبي في فهمه ما يلقى اليه ، ويتنزل عليه ، فيبرزه الى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله الذي ينظم به النبي شريعته بحسب ما يراه من المصلحة في سياسة الكافة . ولا يجب حينئذ العمل بشريعته تلك الا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء . اما « العارف » مثلك الان يا احمد ، فانه لا يلزمه العمل بها ، وتكفيه معرفته فانها اليقين الذي يجب المصير اليه . وما عدا المعرفة من سائر المشروعات فانما هي اثقال و آصار حملها الكفار

اهل الجهالة لمعرفة الاعراض والاسباب .

واعلم ايضاً ايها المستنير ، ان الانبياء النطقاء اصحاب الشرائع انما هم لسياسة العامة . واعلم اخيراً : ان الفلاسفة هم انبياء حكمة الخاصة ، وان الامام انما وجوده في العالم الروحاني اذا صرنا بالرياضة في المعارف اليه ، وظهوره الان انما هو ظهور امره ونهيه على لسان اوليائه .

وتنهد الثلاثة تنهيدة قارعة ، وقال الداعي لابي العلاء : « هات يدك الان ، وكن لنا ناصراً فانما نحن نقوى بامثالك واشباهك . ان في معرة النعمان كثيراً من اخواننا حتى المغفور له والدك . ولكن السابق منهم لم يبلغ الدرجة الخامسة من درجات سلم الحكمة ، فتهيأ لنصرتنا بما اوتيت من ذكاء وفهم وجرأة ، واعلم ان حولك اناساً يفهمونك اذا حدثتهم ، فاهدهم وقدهم وكن لهم في الملمات .

« واخيراً اقول لك اننا فضلناك على جميع الاخوان فلم نأخذ منك ميثاقاً . انني اتلو عليك خاتمة الميثاق الذي نأخذه على من ندعوهم لتعلم حقيقة اننا اجللناك وعظمناك ، فاسمع بعض ما نقوله للمدعو .

« وليس لك ان تتأول في هذه الايمان تأويلا ، ولا تعتقد

ما يحلها ، وانك ان فعلت شيئاً من ذلك فانت بريء من الله ورسله وملائكته ، وجميع ما انزل الله في كتبه ، وانت خارج من حزب الله وحزب اوليائه ، وبريء من حول الله وقوته ، وعليك لعنة الله ، ولله عليك ان تحج الى بيته الحرام ثلاثين حجة ماشياً حافياً ، نذراً واجباً . وكل ما تملك في الذي تخالف يمينك فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين ، وكل مملوك لك من ذكر وانثى فهو حر لوجه الله ، وكل امرأة لك او تتزوجها الى وقت وفاتك فهي طالق ثلاثاً طلاق الحرج ، لا مثوبة لك ولا رجعة ، وكل ما كان لك من اهل ومال وغيرهما فهو حرام عليك . والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت ، وكفى بالله شهيداً بيننا وبينك . »

فلم يدر ابو العلاء ماذا يجيب فصمت . ولكنه تنكر فيما بعد لحياته السابقة بعض التنكر ، وامسى ينكمش في بيته رويداً رويداً حتى صارت داره مجلساً للمستجيبين المخلصين ، ومر في خاطره ان يرحل الى العراق فاستشار الوالدة والاخوان ، ثم رحل اليه .

رسالة ابي العلاء الى المغربين

لا يعنيني ان كان ذهب ابو العلاء الى بغداد مرة او مرتين او عشر مرات . ولا يعنيني أرحل الى عاصمة العالم القديم يريد التزيد من جاه الدنيا ومجدها وملاذها ، ام ذهب ينتجع علوم بغداد وأدبها وفلسفتها فيشهد عن كثب تلك المجامع العلنية والسرية التي كانت تلتئم كل اسبوع .

ولا يعنيني ان كانت امه قبلت منه واعانته ، ولا ان كان خاله ابو طاهر اعد له سفينة اغتصبها منه عمال السلطان ، فسلك طريقاً مخوفة الى موطن الفلسفة ومقر اهل الجدل . . .

ولا يعنيني ، البتة ، ان اخفق ابو حامد الاسفراييني في اعادة سفينة ابي العلاء المغتصبة ، او المصادرة ، ونجح رجل من آل حكار فمدح لاجله ابو العلاء هذه الاسرة واعترف بجميلها .

ليست سفينة ابي العلاء تلك التي اوعز الله بصنعها الى ابينا الثاني فعلم النـاس فن الملاحة وابقى على جنس ابدعه على صورته ومثاله .

ولا يعنيني ان كان ابو العـلاء جلس في بغـداد مجلس التلميذ او مجلس المناظر ، فالانسان دائماً تلميذ ومعلم .

ولا يعنيني ايضاً ان يكون عبد السلام بن الحسين البصري عرض على ابي العلاء مكتبة كانت في يده ، فلم ير شيخ المعرة فيها شيئاً غريبـاً اذ كان قد قرأ كتبها كلها في طرابلس الا ديوان تيم اللات فاستعاره منه ، ثم اختلف المؤرخون في اعادته الى صاحبه . وسواء عندي أممحصة كانت رواية القفطي والذهبي ام غير ممحصة . ولا يعنيني ان ابحث وأجتر ما كتبه غيري عن حضور ابي العلاء المجمع السري المسمى « اخوان الصفاء » بـدار عبد السلام البصري ، كل يوم جمـعة ، كما لا يعنيني حضوره مجمع الشريف المرتضى ، ولا يعنيني ابداً صحة كلام سـلامون ومرغليوث .

ولا يعنيني ان يكون حب المعري للمتنبي جر عليه الاهانة العظمى ، فسحب برجـله من مجلس الشريف المرتضى واخرج . ولا يعنيني سبب عودته من بغداد ولا ماذا لقي من عناء وتعب ،

ولا حزنه على بغداد ، وعلى موت امه في غيابه .

كل هذا ادعه للمؤرخين وممحصي سير حياة الادباء ، والمدققين في النصوص ، وهذا قد كفانيه البحاثة المدقق الاستاذ طه حسين بك في كتابه « ذكرى ابي العلاء » اذ جمع فيه كل ما هب ودب عن المعري وعصره ، فليراجعه من يتوخى التحقيق ويتطلب التوسع .

اما الذي يعنيني ، وقد يكون سئم القارىء وسبني مرات قبل ان أبوح له به ، فهو تلك الرسالة التي وجهها ابو العلاء الى المعريين حين ترك بغداد .

ان ما سماه الناقد الفرنسي تين « مرض العصر » يصح ان يطلق على عصر ابي العلاء ، فمرض عصر المعري هو الجدل والشك وعليهما بنت الدعوة الفاطمية اساسها ، ووجدت في شخصية ابي العلاء تربة صالحة فالقت فيها نواتها ، فانبثقت وانبسطت فروعها ، وامتصت جذورها كل ما في الماء والشمس والهواء من حياة . فأبو العلاء هو الفاطمي العظيم الذي لم يرتدّ ساعة ، وان رأى فاطميو اليوم في كتابه ، بل في كتبه شيئاً يستوقفهم لحظة فليذكروا ان شاعر الدعوة الاعظم كان قبل ما وصل اليهم من رسائل ، وان عقلا كعقل

ابي العلاء يحق له ان يفسر ويؤوّل كما فسر وأوّل غيره من رجال الدعوات والديانات الذين جاؤوا على آثار المؤسسين ، وليذكروا ان في صلب الدعوة ما يبرر هذا النشوء والارتقاء الفكري . . . والا فكيف يدأب « التالي » في اعماله حتى يلحق بمنزلة « الصامت » وكذلك « الصامت » حتى يلحق بمنزلة « الناطق » ؟ وليس كتاب لزوم ما لا يلزم غير كتاب الاخوان ، فلينعم اخواننا الدروز بالا وليطمئنوا في خلواتهم فان امام الدعوة الفاطمية الخالد لم يشك لحظة «فبالمذهب » ، وما ارتد قط .

لست اقول ان ابا العلاء درزي اسماً فقد سموهم هكذا بعده ، ولكني اقول ان مذهبهم مذهبه ، وان ما نراه اليوم عند الطبقة « المتنزهة » من تقشف وزهد في الدنيا مأخوذ عن اثنين : الحاكم بامر الله ، وحواريه ابي العلاء المعري . وهذا ما ستثبته بحوثنا الآتية فليصبر علينا القارىء .

قلت ان ابا العلاء فاطمي المذهب ، وقد ذهب الى بغداد للكشف عن احوال الدعوة هناك ، واتصل بجماعة اخوان الصفاء ، وجماعة الاخوان هؤلاء جمعية سرية كالفاطمية ، ومبادئها تقريباً متفقة ، فاعتقاد اخوان الصفاء كمعتقد الفاطميين في الله والعقل ، وهذا ايضاً لا يعنيني بحثه فاكثر من اكتب

لهم يعرفونه ، وان كانوا نسوه فليراجعوه ، فلست اعـدّهم هنا لفحص البكالوريا او الليسانس في الفلسفـة والاداب . فـالذي يعنيني هو رسالة ابي العلاء التي كتبها الى اهل المعرة ، فقـد دلتني – ولا يعنيني ما يزعم غيري – على فاطمية ابي العـلاء ، وانه يعتنق عقيدة بعينها فناصرها علناً ، واتقى السلطان بما بث بين اقواله مما يبعد عنه تهمة الالحاد لتبقى له حياته .

وسننظر انا وانت ، يا قارئي العزيز ، في هذه الرسالة ، فان وافقتني مقتنعاً فلا بأس ، والا فـانا لست براجع عن فكرتي هذه ما لم تطردها من رأسي فكرة اخرى اقرب منها الى الصواب . فهلم بنا الان الى تلك الرسالة ، واليكها بنصها وفصها ، كما عبر السلف الصالح :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتـاب الى السكن المقيم بالمعرة شملهم الله بالسعادة ، من احمد بن عبد الله بن سليمان خص به من « عرفه وداناه » ، سلم الله « الجماعة » ولا اسلمها ، ولم شعثها ولا آلمها . »

اذا كانت الكلمة كائناً حياً كما اتصور واعتقد فلي في بعض الفاظ هذه الرسالة ادلة تنصر زعمي وتؤيـده ، فأبو العـلاء لا يعني الصورة الظاهرة ، ففي قوله « خص به من عرفه وداناه »

معنى ابعد من المعنى الظاهر السطحي ، ويزداد قصده وضوحاً بقوله : سلم الله الجماعة ولا اسلمها ، فلكلمة « الجماعة » معنى خاص تدلنا عليه دلالة صارخة العبارة التي تليها : « ولمّ شعثها ولا آلمها » ، فلست اشك ان هناك جماعة بعينها يقصدها شيخنا اذ يقول : « اما الآن فهذه « مناجاتي » اياهم منصرفي عن العراق مجتمع اهل الجدل وموطن بقية السلف . »

فما لا اشك فيه هو ان كلمة مناجاة ذات علاقة وثيقة بـ « النجوى » ، وهي ما اطلقه الفاطميون اصطلاحاً على ما يؤخذ من « المستجيب » كالرسم الذي تستوفيه الماسونية من المنخرطين في سلكها . وتدل العبارة كلها كما سيدلنا غيرها على ان ابا العلاء انما رحل مصاباً « بمرض العصر » يطلب دواء له في بغداد مجتمع اهل الجدل .

ثم يقول : « بعد ان قضيت الحداثة فانقضت ، وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر اشطره ، وجربت خيره وشره . » وفي هذه الفقرة ايضاً ما يؤيد زعمي ان ابا العلاء لم يطهر منذ حبل به في البطن ، ولكنه رجل طهر هو نفسه كما سترى .

ثم يقول : « فوجدت اوفق ما اصنعه في ايام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الاروى من سانح النعام ، وما ألوت

نصيحة لنفسي ، ولا قصرت في اجتذاب المنفعة الى حيزي ، فاجمعت على ذلك واستخرت الله فيه ، بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزماً وعدّه اذا تم رشداً . »

هب ان ابا العلاء استشار في امره نفراً يوثق بخصائلهم وفقاً للعادة المعروفة عندنا فما الذي يدعوه الى « الاعتراف » الى اهل المعرة ، وهل يمكن ان تكون هذه الرسالة موجهة اليهم جميعاً ، وما يعني اهل بلدته منه لو لم تكن تجمعه واكثرهم خطة متفق عليها ؟

ثم يقول : « وهو امر اسري عليه بليل قضى برقه ، وخبت به النعامة ، ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غذي الحقب القادمة وسليل الفكر الطويل . » أليس في قوله « ولكنه غذي الحقب القادمة » ما يوقف المفكر ، ويدلنا على ان الرجل يخاطب جماعة يفهمون ما يُعني ، وتربطه بهم علاقة اعظم من علاقة كل رجل باهل بلدته ؟

ثم يقول : « وبادرت الى اعلامهم ذلك مخافة ان يتفضل منهم متفضل بالنهوض الى المنزل الجارية عادتي بسكناه ، ليلقاني فيه فيتعذر ذلك عليه ، فاكون قد جمعت بين سمجين : سوء الادب وسوء القطيعة . ورب ملوم لا ذنب له ، والمثل السائر يقول :

خل امرأ وما اختار . »

ان ابا العلاء يوضح للاخوان خطة لم يكونوا الفوها بعد ، ثم يوصيهم بها في لزومياته كما سترى ، ويريد منهم الان ان يوافقوه عليها ولا يشجبوه . وعلى خطة ابي العلاء هذه يجري اليوم كبار عقّال الدروز ، فاذا ارادوا ان ينفردوا ويلزموا بيوتهم يستشيرون المجلس . وقد يترك الرجل منهم زوجته — بعد الحصول على رضاها — وينفرد في مكان ما يغسل فيه ادران ماضيه ، ويطهر فيه نفسه طول حياته ، واشهر امكنة التوحيد والانفراد عندهم « خلوات البياضة » وقلّ من لم يسمع باسمها ، فهي اشبه بصوامع الحبساء عند النصارى .

وماذا يخشى ابو العلاء حتى يستميح اهل المعرة عذراً لو لم تكن هناك رابطة تربطه بهم وقد اعطى لاجلها صفقة يمينه ؟

ويقول : « وما سمحت القرون بالاياب حتى وعدتها اشياء ثلاثة : نبذة كنبذة فتيق النجوم ، وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة من القوب ، وثباتاً في البلد ان جال اهله من خوف الروم . فان ابى من يشفق علي ، او يظهر الشفقة الا النفرة مع السواد كانت نفرة الاغفر او الادماء . »

ان عبارة « وما سمحت القرون بالاياب » التي مرت بنا هي اخت « غذي الحقب القادمة » التي مرت قبلها وكلتاهما فاطميتان لا يدرك معناهما الحصري الا الراسخون في علم العقيدة . وارجو ان تحفظ هذه « الاشياء الثلاثة » التي وعد بها ابو العلاء القرون حتى سمحت فهي ستثبت لك فاطمية ابي العلاء حين يأتي الكلام على خروجه من محبسه لاسترائه المعرة خطة غبن بعد بيعه وحدته بيعة وكس . . اما الان فسر بنا الى تتميم نص الرسالة : « وأحلف ما سافرت استكثر من النشب ، ولا اتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الاقامة بدار العلم ، فشاهدت انفس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه . والجاهل مغالب القدر . »

ولماذا يحلف ابو العلاء لقوم هو سيدهم ، واذكاهم ، وافهمهم ، واعلمهم ، ولماذا ينفي عنه السفر في طلب المال لولا ان الزهد في الدنيا اساس العقيدة الفاطمية كما سترى ؟

ويختم رسالته بقوله : « فلهيت عما استأثر به الزمان ، والله يجعلهم احلاس الاوطان ، لا احلاس الخيل والركاب ، ويسبغ عليهم النعمة سبوغ القمراء الطلقة على الظبي الغرير ، ويحسن جزاء البغداديين فقد وصفوني بما لا استحقه ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا عليّ اموالهم عرض الجد ، فصادفوني

غير جذل بالصنيعات ، ولا هش الى معروف الاقوام ، ورحلت وهم لرحيلي كارهون ، وحسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون . »

كلنا نعلم ان ابا العلاء رفض الهبات والعطايا في هذا الطور ، اي بعد استجابته للدعوة الفاطمية ، وخصوصاً عندما نسك وزهد ليكون مثلاً اعلى لجماعته كما سترى .

فلا يصح ان نسمي ابا العلاء درزياً لان هذا الاسم لم يكن في زمنه ، ولا ان نسمي اصحابنا الدروز دروزاً لان هذا الاسم لصق بهم بعد حين ، وهو في الحقيقة اسم لا يرضيهم ، وقد يرضى الانسان بما يكره اذا غلب عليه واشتهر به .

ان سيرة المعري هي الدستور الاسمى لطبقة « الاجاويد » العليا المعروفة عند الدروز بـ « المتنزهة » . وهؤلاء المتنزهة بل من هم دونهم في طبقة « الجودة » لا يقبلون مالاً من احد مشكوكاً في انه غير حلال ، ولهذا قال ابو العلاء لاخوانه « الجماعة » في المعرة : « عرضوا عليّ اموالهم عرض الجد ، فصادفوني غير جذل بالصنيعات . »

ان هذه الخصلة مقتبسة من امام الدعوة وسيدها الاسمى الحاكم بامر الله ، فقد كان راغباً عن العطايا والهبات وقد رد مال متوفى اوصى له به ، وكان يهب بلا حساب . أما كتب

الى امين الامناء حين توقف عن الدفع : « ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ، والمال مال الله عز وجل ، والخلق عيال الله ، ونحن امناؤه في الارض ، اطلق ارزاق الناس ولا تقطعها والسلام » ؟

ومن يقرأ لزوميات المعري يرى انه كان يصور للناس شخصية الحاكم وخصاله من حيث لا يدرون . اذكر لك واحدة الان . ان كره الحاكم للمال حمله على الغاء المكوس ، وقد ايده شاعر دعوته في المعرة اذ رأى من الحكام غير ذلك فقال :

وارى ملوكاً لا تصون رعية
فعلامَ تؤخذ جزية ومكوس

كلنا نعلم ان ابا العلاء غاضب على الحكام ، ويراهم اجراء الامة الذين عدوا مصالحها ، ويتحدث عن ظلمهم وينتقدهم انتقاداً مؤلماً ، ويعترض على اجراءاتهم ، والتاريخ ينبئنا ان الحاكم بامر الله كان جباراً ، وقد اهدر دم الكثيرين ، وقتل كبار رجال دولته ، فلماذا يرضى عنه ابو العلاء الذي لم يرض عن احد؟ فهو يحدثنا عنه مرة في لزومياته بكل اناة ورفق ، بل يتحدث عنه كما نتحدث نحن عن الانبياء والرسل فيقول

كلاماً لا لبس فيه ولا ابهام ولا مجاز ولا رموز ، كلام جلي واضح لا يحتمل أقل تأويل ، فيمتدح الحاكم ويذم ابنه الظاهر بامر الله الذي تبرأ من رسالة ابيه ، واضطهد المستجيبين للدعوة اضطهاداً فظيعاً حتى علق رؤوسهم على صدور نسائهم ، فقال ابو العلاء مدافعاً عن « مولاه » :

مضى قَيل مصر الى ربه

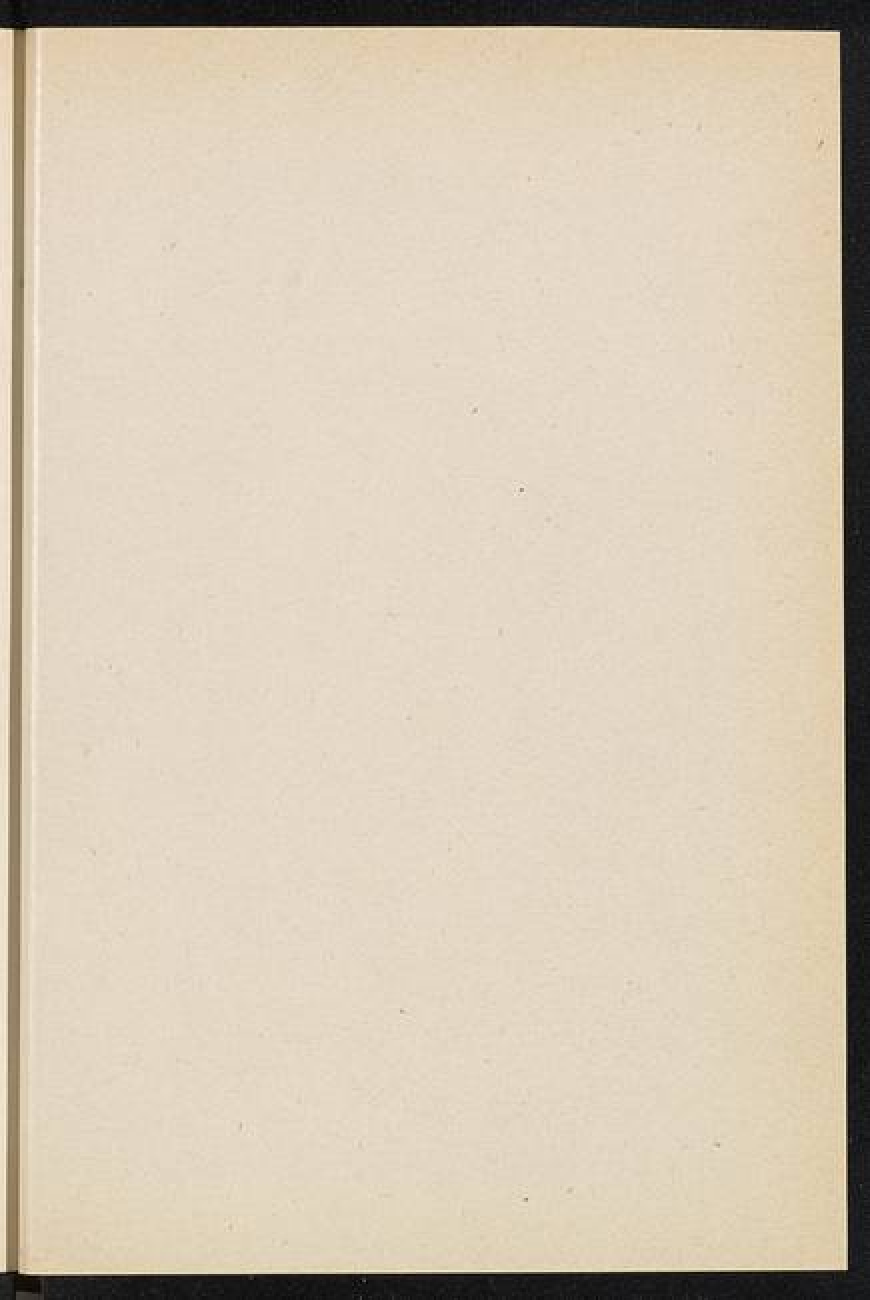
وخلّى الحكومة للخائل

وهو لا يعني غير الظاهر بامر الله حين قال ـ وهذا البيت قد اوردته في فصل سابق ـ :

اعدى عدو لابن آدم خلته

ولد يكون خروجه من ظهره

وان تتبعني ايها القارىء الكريم بعد ان تتجرد من ذاتك التقليدية فستعود من رحلتنا هذه وانت واثق مثلي ان شيخ المعرة هو امام المذهب الفاطمي ، وكتاب لزومياته هو كتاب المذهب ، انما عليك ان تقرأ ما اكتبه وما كتبته بامعان ، وتتبحر في عبارات « الدعوات التسع » فتدرك مثلي وتبصر .



حَبيسُ المعَرّة

مدرسة ابي العلاء

١

تكاثرت الظباء على خراش
فلا يدري خراش ما يصيد

ولكنك ستعلم ان شيخنا ، حيّاه الله ، صياد جبار متى سمعته يملي على تلاميذه الذين ضاق بهم المكان ، فتخالك في اثينا لا في قرية من قرى « العواصم » . وكان بين طلاب الشيخ واحد تجاوز سن الشباب ما عرف شيخنا من امره الا انه من القاهرة واسمه اسمعيل التميمي . راب الشيخ امر هذا الطالب ، فكيف يضرب اليه اكباد الابل وهو من مصر ، وفي مصر « دار الحكمة » ؟ نظمه الشيخ في احدى حلقاته بعدما اعتذر له بضيق المقام وما نفع الاعتذار . احتج التميمي ببعد

الشقة وانه قصد ليغرف من بحر علمه ويقتبس من حكمته .
فتأفف ابو العلاء لانه ضاق ذرعاً بمريديه ، فبيوت المعرة تغص
بهم وبيته لا يسعهم ، فاضطر الى جعلهم حلقات مختلفة ، فريق
يجيء وفريق ينصرف والشيخ متربع لا تحل له حبوة ولا
يتزحزح الا حين تدعوه حاجة كالاكل والشرب وما يليهما .

واذا ما انصرف طلابه وخلت الدار قعد يعد امالي الغد .
امالي ممزوجة بكل ما يلابس الحياة ويلامسها من قريب
وبعيد ، وشأنه مع المسائل الخطيرة والحطرة شأن العصفور
الدوري ينقد ويطير ، ثم يكر ثانية ، وهكذا دواليك حتى
يشبع ويشبع تلاميذه . . . يعالج جميع الموضوعات التي تنشيء
رجالاً وتمتن اخلاقهم ، فهو ينشد الكمال الانساني دائماً ، كما
ينشد الكمال الانشائي في ما ينظم ليملي معنياً باللغة التي كانت
ركن العلوم في ذلك الزمان ، بل كانت كل شيء . فيكثر
من الغريب ، ويرمز ويلمح ، ويطابق ويجانس ، ويطوي وينشر
ويوري ، ثم يعود الى ايضاح ما املى وشرحه ، ويفذلك اخيراً
آراءه لترسخ في الاذهان ، اذهان مريديه الذين اعتقدوا ان
عند الشيخ علم كل شيء لانه ذاع عنه :

غدوت مريض العقل والدين فالقني

لتعلم انبـاء العلوم الصحـائح

وقوله :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن

الا وعندي من اخبارهم طرف

ولذلك تعج اماليه بالتلميح ، وتضطرم فيها نيران الثورة على الاديان جميعها ، فكأنه جامعة دولية لا تخوم لها ولا حدود . كان الاقبال عليه عظيماً فاستحالت وحدته الى مجتمع حي نابض بقوة الشباب وتفكيره الصاخب ، وقـد اشار ابو العلاء الى مدرسته هذه بقوله :

يزورني الناس هذا ارضه يمن

من البلاد وهذا ارضه الطبس

قالوا سمعنا حديثاً عنك ، قلت لهم

لا يبعد الله الا معشراً لبسوا

يبغون مني معنى لست احسنه

فان صدقت عرتهم اوجه عبس

اعاننا الله ، كل في معيشته

يلقى العناء ، فدرّي فوقنا دبس

وحانت ساعة الاملاء فتحركت شفتا الشيخ فقال العرّيف :

اقلامكم واوراقكم . فأملى الشيخ :

ملائك تحتها انس وسائمة

فالاغبياء سوام ، والتقي ملك

فلا تعلّم صغير القوم معصية

فذاك وزر الى امثاله عدلك

فالسلك ما اسطاع يوماً ثقب لؤلؤة

لكن اصاب طريقاً نافذاً فسلك

فكتب التميمي ، وهو يصر شفتيه ، متعجباً لهذه العظة الضخمة كيف برزت في هذا الثوب الدقيق ، وراح يفكر فيما كتب واذا برفاقه قد سبقوه ولم يلتقط هو الا هذا البيت :

يا رضو لا ارجو لقاءك

بل اخاف لقاء مالك

فضحك التميمي اذ درى ما عنى شيخه وعلم انهما على صعيد واحد . وانتقل الشيخ الى موضوع آخر بعد تفكير قليل وقال اكتبوا :

تقضى الناس جيلاً بعد جيل

وخلفت النجوم كما تراها

اذا رجع الحصيف الى حجاه

تهاون بالمذاهب وازدراها

وهت اديانهم من كل وجه
فهل «عقل» يشد به عراها
تقدم صاحب التوراة موسى
واوقع في الخسار من افتراها
وقال رجاله وحي اتاه
وقال الظالمون بل افتراها
ارى ام القرى خصت بهجر
وسارت نمل مكة عن قراها
وكم سرت الرفاق الى صلاح
فمارست الشدائد في سراها
يوافون البنية كل عام
ليلقوا المخزيات على قراها
ضيوف ما قراها الله عفواً
ولكن من نوائبه قراها
وما سيري الى احجار بيت
كؤوس الخمر تشرب في ذراها
فان الله غير ملوم فعل
اذا اورى الوقود على وراها

فازداد التميمي تعجباً اذ سمع المعلم يتحدث عن الله ، في البيت الاخير ، كأنه يتحدث عن زميل له او نظير فيحاول تبرئته ان فعل ما نعاه عليه .

وشرح الشيخ بعض كلمات مما املاه ، ودل انواع البديع ، ثم عاد يملي فكتبوا :

اتت خنساء مكة كالثريا

وخلّت في المواطن فرقديها

وتوقف هنيهة ليشرح ما يعني بقوله خنساء ، وكيف ورّى ، ثم اتم :

ولو حلّت بمنزلها وصامت

لألفت ما تحاوله لديها

ولكن جاءت الجمرات ترمي

وابصار الغواة الى يديها

وليس محمد فيما اتته

ولا الله القدير بمجديها

وكان الطلاب يكتبون ويتغامزون متعجبين ، اما التميمي فما صدق انه يكتب ما كتب حتى نقلهم الشيخ الى قضية من قضاياه الكبرى فقال : اكتبوا يا اولادي :

لو كان جسمك مطروحاً بهيئته
بعد التلاف طمعنا في تلافيه

كالدن عطل من راح تكون به
ولم يحطم فعادت مرة فيه

لكنه صار اجزاء مقسمة
ثم استمر هباء في سوافيه

وانتقل الى موضوع آخر اقل خطراً فأملى :

الا تفكر قبل النسل في زمن
به حللت فتدري اين تلقيه

ترجو له من نعيم الدهر ممتنعاً
وما علمت بان العيش يشقيه

شكا الاذى فسهرت الليل وابتكرت
به الفتاة الى شمطاء ترقيه

وامه تسأل العراف قاضية
عنه النذور لعل الله يبقيه

وانت ارشد منها حين تحمله
الى الطبيب يداويه ويشفيه

ولو رقى الطفل عيسى او اعيد له

بقراط ما كان من موت يوقيه
دنست عرضك حتى ما ترى دنساً
لكن قميصك للابصار تنقيه

ثم املى ايضاً :

وينشأ ناشيء الفتيان منا
على ما كان عوّده ابوه
وما دان الفتى بحجى ولكن
يعلمه التدين اقربوه
وجاءتنا شرائع كل قوم
على آثار شيء رتبوه
وغيّر بعضهم اقوال بعض
وابطلت النهى ما اوجبوه

واراد التميمي ان يطرح سؤالا فقال المعري : اكتبوا، ثم سألوا ما شئتم :

أسهب الناس في المقال وما يظفر
الا بزلة مسهبوه
عجباً للمسيح عند النصارى
والى الله والد نسبوه

اسلمته الى اليهود النصارى

واقروا بانهم صلبوه

يشفق الحازم اللبيب على

الطفل اذا ما لداته ضربوه

واذا كان مايقولون في عيسى

صحيحاً فأين كان ابوه

كيف خلى وليده للاعادي

ام يظنون انهم غلبوه

واذا ما سألت اصحاب دين

غيروا بالقياس ما رتبوه

لا يدينون « بالعقول » ولكن

بأباطيل زخرف كذبوه

ووجّه الشيخ وجهه شطر صوت التميمي وقال : سل الآن ما بدا لك . فاجاب التميمي : ادركت يا شيخنا ما عنيت .

فقال ابو العلاء : اكتبوا اذن . وطفق يفسر كلمات الدرس ويشرح الابيات ويعرب لتلاميذه ما اشكل عليهم ، ويحل الرموز . وأذّن العصر فانصرفوا .

وكان للشيخ تلميذ يؤثره ، وكان هذا الشاب يعين شيخه ،

يقدم له حذاءه ويأخذ بيده ليقوم الى حاجته . ومن عمله ايضاً ان يكتب ما يمليه عليه ويحفظه في صندوقة موضوعة دائماً بقرب الشيخ . وسأل الشيخ تلميذه عن الطالب الجديد اي التميمي ، ما سنه ؟ وماذا ابدى اثناء الدرس ، استحساناً ام استهجاناً ؟ وهل استغرب شيئاً مما املي عليه ، واين يقيم ، وهل اكترى بيتاً ؟ الخ . . .

فاجاب الطالب : فوق الثلاثين ، فقال الشيخ : أف ، واتم الفتى : اما الدرس فقد دهشه . وظل الشيخ ساكتاً فقال الشاب : ما عودتني مثل هذه السؤالات ، اتخشى منه بأساً ؟ فاومأ الشيخ ان لا ، ثم قال : انه آت من مصر ، وسوء الظن من حسن الفطن . وتنهد ابو العلاء تنهدة يعرفها تلميذه انها علامة الانصراف ، فقبّل يده وخرج .

٢

وشرع ابو العلاء ، على عادته ، يعد الامالي للدرس الآتي ، ومع الشمس جاء تلاميذه فجلسوا حوله في الساطين حتى اذا وفد المتأخرون صاروا حلقة . وكان التميمي قد بكر وقعد من الشيخ مقعد الطالب المدل لا يفصل بينهما احد .

وتحركت شفتا الشيخ للاملاء حركات بطيئة فسريعة ، وكان نظره كعادته عالقاً باعلى الجدار ، فتهيأ الطلاب لاقتبال البذور التي يلقيها الزارع الخالد فأملى ولكن من « سقط الزند » :

ارى العنقاء تكبر ان تصادا
فعاند من تطيق له عنادا

وظنّ بسائر الاخوان شراً
ولا تأمن على سر فؤادا

وعض على كلمة سر كأنما هو يعني شيئاً ، ثم قال :

ولو خبرتهم الجوزاء خبري
لما طلعت مخافة ان تكادا

فأي الناس اجعله صديقاً
واي الارض اسلكه ارتيادا

ولو ان النجوم لدي مال
نفت كفاي اكثرها انتقادا

كأني في لسان الدهر لفظ
تضمن منه اغراضاً بعادا

يكررني ليفهمني رجال
كما كررت معنى مستعادا

ولو اني حييت الخلد فرداً
لما احببت بالدنيا انفرادا
فلا هطلت علي ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

وكان التميمي يكتب وعليه امارات التعجب . منكب على دفتره وقلمه بيده ، راصد كأنه الهر على باب الجحر . اما الطالب الاثير فكان له بالمرصاد يحصي عليه انفاسه . وهمّ الشيخ بالكلام فسمعت تكتكة الاقلام في البواقيل وحفيف الدفاتر فقال :

اصبحت منحوساً كأني ابن مسعود
وما اطغى بان اهزلا
لي امل فرقانه محكم
اقراه غضاً كما انزلا
شيخاً اراني كطفيل غدا
يركض في غاراته قرزلا
لا يكذب الناس على ربهم
ما حرك العرش ولا زلزلا
فليت من يفري احاديثه

مـات فصيـلاً قبل ان يبزلا

يا جدتي حسبك من رتبة

انك من اجداثهم معزلا

املني الدهر باحداثه

فاشتقت في بطن الثرى منزلا

ان نشأت بنتك في نعمة

فالزمتها البيت والمغزلا

ذلك خير من شوارٍ لها

ومن عطايا والد اجزلا

وتوقف الشيخ هنيهة عن الاملاء كعادته عند كل نهاية ، فاخذ التميمي يفكر في العلاقة بين الابيات والاخيرة ، ولكنه الف اسلوب الشيخ فيما بعد ، فادرك انها طريقته الخاصة ، وخطته ان يكر ويفر الى حصن آخر بعد كل حجر يرميه من منجنيقه . يفعل ذلك تقية ليشغل قارئه بالجديد عما سبق .

وتنحنح الشيخ ، فاستعدوا ، فأملى :

دعاكم الى خير الامور محمـد

وليس العوالي في القنا كالسوافل

حداكم الى تعظيم من خلق الضحى

وشهب الدجى من طالعات وآفل

وألزمكم ما ليس يعجز حمله

اخا الضعف من فرض له ونوافل

وحث على تطهير جسم وملبس

وعاقب في قذف النساء القوافل

وحرّم خمراً خلت ألباب شربها

من الطيش ألباب النعام الجوافل

يجرّون ذيل الملك جر اوانس

لدى البدو اذيال الغواني الروافل

فصلى عليه الله ما ذر شارق

وما فت مسكاً ذكره في المحافل

فصلوا جميعاً وسلموا ، وزفر الشيخ زفرة حرى واملى :

لعل اناساً في المحاريب خوفوا

بآي ، كناس في المشارب اطربوا

اذا رام كيداً بالصلاة مقيمها

فتاركها عمداً الى الله اقرب

فلا يمس فخاراً الى الفخر عائد

الى عنصر الفخار للنفع يضرب

لعل اناء منه يصنع مرة
فيأكل فيه من اراد ويشرب
ويحمل من ارض لأخرى وما درى
فواهاً له بعد البلى يتغرب
وما الارض الا مثلنا الرزق تبتغي
فتأكل من هذا الانام وتشرب
لقد كذبوا حتى على الشمس انها
تهان اذا حان الشروق وتضرب

فكان استحسان من سواد الطلبة ، فمضى الشيخ في الاملاء :

الا فانعموا واحذروا في الحياة
ملماً يسمى مزيل النعم
ارى قدراً بث احداثه
فخص بهن اناساً وعم
وان القنا حملتها الاكف
لطعن الكماة وشل النعم
فلا تأمنوا الشر من صاحب
وان كان خالا لكم وابن عم
اتوكم باقيالهم والحسام

فقد بهم زاعم مـا زعم

تلوا باطلاً وجلوا صارماً

وقالوا صدقنا فقلتم نعم

افيقوا فان احاديثهم

ضعاف القواعد والمدّعم

زخارف ما ثبتت في العقول

عمّى عليكم بهنّ المعمّ

يدول الزمان لغير الكرام

وتضحي ممالك قوم طعم

وما تشعر الابل ان الركاب

امت الى الرمل ام لم تعم

وادرك التميمي الان كيف يطمر الشيخ اغراضه ، وينصب فخاخه ويسويها بالارض ويذري عليها ما يغطيها ، فلا يدرى اين هي . وانتقل الشيخ دونما استراحة الى لزومية اخرى فأملى :

اذا مدحوا آدمياً مدحت

مولى الموالي ورب الامم

وذاك الغني عن المادحين

ولكن لنفسي عقدت الذمم

ومغفـــرة الله مرجـــوة
اذا حبست اعظمي في الرمم

فيـا ليتني هامداً لا اقـوم
اذا نهضوا ينفضون اللمم

ونادى المنـادي على غفـلة
فلم يبق في اذن من صمم

وجاءت صحائف قد ضمنت
كبائر آثامـهم واللمـم

رأيت بني الدهر في غفلة
وليست جهـالتهم بالامـم

فنسك اناس لضعف العقول
ونسك اناس لبعـد الهمم

وكان شرح فاستراحة قليلة ، ثم عاد الشيخ الى الامـلاء :

قد ندمنا على القبيح فأمسينا
على غـير قهوة نتنـادم

خالق لا يشك فيه قديم
وزمان على الانام تقادم

جائز ان يكون آدم هذا

قبله آدم على اثر آدم

خدم الله غيرنا وارانا

اهل غي لربنا نتخادم

لست انفي عن قدرة الله اشباح

ضياء بغير لحم ولا دم

وبصير الاقوام مثلي اعمى

فهلموا في حندس نتصادم

وابدى التميمي حركة اشعرت الشيخ ان تلميذه اعرف من رفاقه . ولم يعزُ ذلك الى سنه بل ظن انه من « المستجيبين »، فابتسم واملى :

اصحاب ليكة اهلكوا بظهيرة

حميت ، وعادٌ اهلكت بالصرصر

كسرى اصاب الكسر جابر ملكه

والقصر كر على تطاول قيصر

فابدى التلاميذ استحساناً عظيماً لهذا الجناس البارع ولكن الشيخ لم يبال واتم :

لا تحمدن ولا تذمن امرأ

فينا فغير مقصر كمقصر

آليت لا ينفك جسمي في اذى
حتى يعود الى كريم العنصر
واذا رجعت اليه صارت اعظمي
ترباً تهافت في طوال الاعصر
والله خالقنا اللطيف مكوّن
ما لا يبين لسامع او مبصر
ايام لم تك في المواطن كوفة
لمكوف او بصرة لمبصر

وبدت حركة استحسان فلم يعرها الشيخ اهتماماً وظل يملي :

والعقل يعجب للشروع تمجس
وتحنف وتهوّد وتنصر
فاحذر ولا تدع الامور مضاعة
وانظر بقلب مفكر متبصر
فالنفس ان هي اطلقت من سجنها
فكأنها في شخصها لم تحصر
والطول في وسط البنان لعلة
كالنقص في ابهامها والخنصر

فضحك التميمي ضحكة بلغ رنينها اذن الشيخ ، واستغرب

الاخرون ما بدا منه . اما الشيخ فعرف صاحبه كل المعرفة .
واملى قصيدة اخرى من وزنها وقافيتها ختمها بهذا البيت :

واذا اردتم للبنين كرامة
فالحزم اجمع تركهم في الاظهر

وسئل الشيخ لماذا فقال اكتبوا :

جنى ابن ستين على نفسه
بالولد الحادث ما لا يجب
تقول عرس الشيخ في نفسها
لا كنت يا شرخليل صحب
انفع منه عندها برجد
اذهب قرّا او سقاه سحب

وقال :

تفرقوا كي يقلّ شركم
فانما الناس كلهم وسخ
قد نسخ الشرع في عصورهم
فليتهم مثل شرعهم نسخوا!

ثم قال :

من وسخ صاغ الفتى ربه

فـلا يقـولـنّ توسخت

وقال :

لو انّ كل نفوس القوم رائية
كرأي نفسي تناءت عن خزاياها
وعطلوا هـذه الدنيـا فما ولدوا
ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ثم وقف والتفت نحوهم وقال : اسألوا الان لماذا ؟
– لنستأنف حياة جديدة خيراً من هذه الحياة . وكأنه ادرك انه تورط فقال اكتبوا :

ما اقدر الله ان يدعو بريتـه
من تربهـم فيعودوا كالذي كانوا
ان كان رضوى وقدس غير دائمة
فهل تدوم لهذا الشخص اركان
ما احسن الارض لو كانت بغير اذى
ونحن فيهـا لذكر الله سكان

فتهلل التميمي حتى ابدى نواجـذه وقال بصوت مسموع : القضية ثابتـة . وعبس الشيخ فقطّ التميمي ضحكته قطاً . واملى الشيخ :

ولو طار جبريل بقيـة عمره

من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

وقد زعموا الافلاك يدركها البلى

فان كان حقاً فالنجاسة كالطهر

واما الذي لا ريب فيه لعاقل

فغـدر الليالي بالظلامية الزهر

وان صح ان النيرات محسة

فماذا نكرتم من وداد ومن صهر

لعل سهيلاً وهو فحل كواكب

تزوج بنتـاً للسماك على مهر

وعم الضحك حلقة الشيخ ، وارتاح هو الى ارتياح تلاميذه وفهمهم منطقه وما يريد وما يعني . وصرفهم لاستراحة قليـلة واستدنى التميمي قائلاً له : اكشف لي عن صفحتك ، فمـا خطبك ؟ عرفت انك منا ، فماذا تبتغي في حلقتي ؟

فصرح له التميمي انه موفـد من لدن الحـاكم بامر الله ، ومهمته ان يتلقى بعض الدروس ، ثم يتوجه بالشيخ الى القاهرة ليلقي الدروس على « الدعاة » في « دار الحكمة » .

فابتسم ابو العلاء وقال له : كان ذلك قبل النـذر ، خذ

عني ما تشاء ، واكتب ما تشاء ، وخبر « الامام » بما رأيت وسمعت ، اما ذهابي الى القاهرة فهيهات . هيهات ان يحمل عني مولانا الحاكم وزر يميني . نحن قوم ، وانت من العارفين ، ندين بالصدق ، ومن يكذب على نفسه يكذب على الامام والاخوان ، والعياذ بالله .

وكان اخذ وردّ ، وتمادى التميمي حتى استولى على امد الحديث . ودخل التلاميذ وقعدوا فأملى الشيخ :

عمى العين يتلوه عمى الدين والهدى
فليلتي القصوى ثلاث ليالي
لي الله غارات السنين فانها
مبدلة ظلماتها بزيال
وهوّن ارزاء الحوادث انني
وحيداً اعانيها بغير عيال
فدعني واهوالاً امارس ضنكها
واياك عني لا تقف بحيالي

فظن التميمي انه يعنيه ولكنه كتب ما املى :

جاء القران وامر الله ارسله
وكان ستر على الاديان فانخرقا

ما ابرم الملك الا عاد منتقضاً
ولا تآلف الا شت وافترقا
مذاهب جعلوها من معايشهم
من اعمل الفكر فيها تعطه الارقا
احذر سليلك فالنار التي خرجت
من زندها ان اصابت عوده احترقا

فردد تلميذ مرح بيتاً آخر اخذوه عن الشيخ منذ مدة :

عروسك افعى فهب قربها
وخف من سليلك فهو الحنش

فضحك بعض وتضاحك بعض ، اما الشيخ فأتم :

وكلنا قوم سوء لا اخص به
بعض الانام ولكن اجمع الفرقا
اذا كشفت عن الرهبان حالهم
فكلهم يتوخى التبر والورقا

واستراح قليلا ليوضح ما خفي على تلاميذه ، وينشر ما طوي ، ثم انشد :

مساجدكم ومواخيركم
سواء فبعداً لكم من بشر

وما انتم بالنبات الحميد
ولا بالنخيل ولا بالعشر

ولكن قتاد عديم الجناة
كثير الاذاة ابى غير شر

فيا ليتني في الثرى لا اقوم
ان الله ناداكم او حشر

وما سرني انني في الحياة
وان بان لي شرف وانتشر

ارى اربعا آزرت سبعة
وتلك نوازل في اثني عشر

وختم درس ذلك اليوم بما يلي :

يقول لك العقل الذي بيّن الهدى
اذا انت لم تدرأ عدواً فداره

وقبّل يد الجاني التي لست واصلا
الى قطعها ، وارقب سقوط جداره

وهكذا انقضت شهور والتميمي يدور حول الشيخ ويداوره ويأخذ عنه ، ويزين له الاقامة في القصر ودار الحكمة ، والشيخ ثابت لا يتحول ولا يتزعزع . وادرك التميمي ان ما يأخذه من

علم الشيخ وما ينقله عنه الى مولاه خير وابقى ، فكتب دفاتر كثيرة املاها عليه الشيخ . واكبّ على الدفاتر التي لم تمل فاخذ منها ما شاء ولسان حاله يقول : انا على سفر لا بد من زاد . . .

٣

واتصلت حلقة الشيخ في غرة رمضان سنة ٤١١ هجرية فأملى على تلاميذه :

انا صائم طول الحياة وانما
فطري الحمام ويوم ذاك اعيّد
لونان من ليل وصبح لوّنا
شعري واضعفني الزمان الايّد
والناس كالاشعار ينطق دهرهم
بهم فمطلق معشر ومقيد
قالوا فلان جيد لصديقه
لا يكذبوا ما في البرية جيد
فأميرهم نال الامارة بالخنا
وتقيّهم بصلاته متصيد

كن ما تشاء مهجناً او خالصاً
وإذا رزقت غنى فانت السيد
واصمت فما كثر الكلام على امرىء
الا وظن بانه متزيد

ثم رجع الى موضوعه الذي لا يبرح من فكره فكانـه الفكرة الثابتة :

دين وكفر وانباء تقص ، وقرآن
ينص ، وتوراة وانجيـل
في كل جيل اباطيل يدان بها
فهل تفرّد يوماً بالنهى جيل
ومن اتاه سجل السعد عن قدر
عال فليس له بالخلد تسجيل
وما تزال لاهل الفضـل منقصة
وللاصـاغر تعظـيم وتبجيل

وانتقل الى الكلام عن قدرة الله فأملى :

اني ونفسي ابداً في جذاب
اكذبها وهي تحب الكذاب
ان ادخل النار فلي خالق

يحمل عني مثقلات العذاب

يقدر ان يسكنني روضة

فيها ترامى بالمياه العذاب

لا اطعم الغسلين في قعرها

ولا اغادى بالحميم المذاب

وقال :

باذن الله ينفذ كل امر

فنهنه فيض ادمعك السجوم

يجوز بحكمه موت البرايا

وان تبقى السماء بلا نجوم

وجاء حديث الخير ، فأحكم الشيخ قعدته واملى :

ان اتاه الخير من عسجد

لو خر هضب فوقه ما انثلم

ان زجر الله حديداً نبا

او امر الله حريراً كلم

واملى ايضاً :

أأخشى عذاب الله والله عادل

وقد عشت عيش المستضام المعذب

وانتقل الى عروض اخرى فأملى :

لك الملك ان تنعم فذاك تفضل

عليّ وان عاقبتني فبواجب

يقوم الفتى من قبره ان دعوته

وما جر مخطوط له في الرواجب

عصا النسك احمى ثم من رمح عامر

واشرف عند الفجر من قوس حاجب

ومد يده نحو السماء وانشد :

وما عذري وعند الله علمي

اذا كذبت قوائل مسندات

فهل علمت بغيب من امور

نجوم للمغيب معردات

وليست بالقدائم في ضميري

لعمرك بل حوادث موجدات

ولو امر الذي خلق البرايا

تهاوت للدجى متسردات

وقد زعموا بان لها عقولا

واقضية المليك مؤكدات

وان لبعضها لفظاً وفيها
حواسد مثلنا ومحسدات

ثم املى هذين البيتين :

يكر موتانا الى الحشر ان
قال لهم بارئهم كروا
يخلق منا آخر اولاً
كأننا السنبل والبرّ

وشاء شيخنا ان يرمي آخر سهم في جعبته ويعظم الله اعظم تعظيم فقال اكتبوا نثراً : « يقدر ربنا ان يجعل الانسان ينظر بقدمه ، ويسمع الاصوات بيده ، وتكون بنانه مجاري دمعه ، ويجد الطعم باذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشي الى الغرض على هامته . وان يقرن النير وسنير حتى يريا كفرسي رهان ، ويترل الوعل من النيق ويجاوره السودنيق ، حتى يشد فيه الغرض ، وتكرب عليه الارض ، وذلك من القدرة يسير ، سبحانك ملك الملوك عظيم العظماء . »

واعتقد الشيخ انه ادى اكبر تسبحة لله فدمعت عينه ورجف صوته ، من يدري ماذا كان يجول في خاطر الشيخ في تلك الساعة الخطيرة من عمره . قد يكون هذا — ولست

اجزم فيما ازعم ـ وما زالت هذه قدرة الله فلماذا لا ينظر الى عبده الناسك فيقول له ابصر، فيبصر ؟

وتجلد الشيخ واملى :

دموعي لا تجيب على الرزايا
ولولا ذاك ما فتئت سجوما
رضا بقضاء ربك فهو حتم
ولا تظهر لحادثة وجوما
ولم زحلا او المريخ فيها
ولا تلم الذي خلق النجوما
ولست اقول ان الشهب يوماً
لبعث محمد جعلت رجوما
فأمسك غرب فيك ولا تعوّد
على القول الجراءة والهجوما

وشاء ان يأتي على آخر الفكرة ويجلوها فقال :

زعم الناس ان قوماً من الابرار
عولوا بالجو في الطيران
ومشوا فوق صفحة الماء هذا
الافك ما جرى العصران

وقال الشيخ : رمضان ضيّق يا اولادي ، فلنختم درس هذا النهار ، اكتبوا :

قلدتني الفتيا فتوجني غداً
تاجاً باعفائي من التقليد
ومن الرزية ان يكون فؤادك
الوقاد في جسد عليه بليد
وحوادث الايام تولد جلة
وتعود تصغر ضد كل وليد

ـ امضوا ، سلمكم الله .

٤

وبعد افطار غرة رمضان سنة ٤١١ دخل الداعي اسمعيل التميمي على ابي العلاء فقال : قد تكون بلغت سيدي وشيخي اخبار مصر ، انها سوداء تستوكف العبرات . تحريق وقتل ، ونهب وسلب ، واضطراب وفزع ، ثار العوامّ « بالدعاة » فقتلوا بعضهم وعقب ذلك حرق مصر . وقد يكون مولانا الحاكم استطال بقائي في المعرة ولكن عذري معي ، فما احمله الى الحضرة من علم الشيخ يشفع بي عنده ، ويعزيه في

كربته . لست اشك في انـه سيعنفني اشد التعنيف ، وان ادركته في ساعة شؤم فالويل لي .

ــ علام يعنفك ؟

ــ لاني لم اقم بمهمتي ، استسفرني اليك وهـا انا اعود وحدي ، والله يا سيدي ، احلف لك انني اخشى لقاءه .

ــ تخاف مقابلته ؟

ــ لست وحدي اخاف ذلك ، صوت قوي مرعب كالرعد القاصف يحمل الروع الى سامعيه ، بنية قوية متينة كأنه من الجبابرة والعمالقة ، مبسوط الجسم ، مهيب الطلعة ، عينان كبيرتان سوداوان تمازجها زرقة ، نظرات حادة مروعة كنظرات الاسد لا يستطيع الانسان صبراً عليها . كثيرون سقطوا على الارض وجلاً منه واخرسهم خطابه .

كان ابو العلاء يسمع كلام اسمعيل وكأنه في غيبوبة ، وسكت التميمي هنيهة فقال ابو العلاء : خلق عجيب .

ــ نعم يا مولاي ، وُخلقه اعجب من خَلقه ، يشمئز من الدنايا ، عفيف طاهر ، صادق جواد ، تارة يتسع صدره فيحمل الاهرام والمقطم ، واحيـاناً يخف حلمه فيقبل عزرائيل بخيله ورجله ، وهو في الحالين لا يحيد قيد انملة عن طريق

الصدق والخير .

– رغبتني فيه يا اسمعيل ، وزينت لي لقاءه لولا اني في قيدين ، وقيد واحد منهما كاف : العمى واليمين . العمى يا تميمي مصيبة اذا رافقه طبع سوداوي كطبعي . ما انا اول اعمى ، ولكني اول رجل من العميان في هذه الغريزة . آنف ان اقاد كالكبش ، ولا اغتفر لنفسي زلة او تقصيراً ، ولا احمل منة . الله الله فيّ . العلم يريد ان يظهر ولكن العمى يهيب بي : الزم مكانك فخير دواء لدائك هذه الخلوة فلا تبرحها .

ليته يستوي لي جناحان فأطير بهما الى القاهرة ، ولكن الله لا يريد ولتكن ارادته يا اخي . العمى محنة ولست احمد الله عليه كما ادعى بشار ، فمن لي ان ابصر ساعة واحدة لارى عجائب خالقي التي اتخيلها ولا ادركها تمام الادراك . تتوهم اني ادرك الاشياء ولكني اقول لك انني ادرك المرئيات ادراكاً ناقصاً . اتخيلها من كلام العارفين بها ، ولكن الكلمة يا اسمعيل لا تؤدي المعنى تاماً غير منقوص . اعانني الله على محنتي وجعل خاتمة طريقي خيراً . فهل بعد الشقاء بقاء ؟ الله اعلم . ولكنني مؤمن بالخير ولا يكون المصير الا خيراً ان شاء الله

وبعدُ يا تميمي ، افما تقول لي ما حاجة مولانا الامام ، حرسه الله ، بهذا الجسد النحيل ؟ ان هواي معه وفكري عنده ، والهدف واحد . . . اما علمي فما حجبته عنك ، فانت حامله اليه وهذا كل ما في جعبة الشيخ . ما لي وللحواضر يا اسمعيل ، سيان عندي الليل والنهار ، والقصر والكوخ . اتظن ان رحلتي الى الحاكم تزيدني معرفة به ؟ لقد وصفته لي فتخيلته جسمانياً ، وما يبلغني عنه من النزاهة والزهد ومقاومة الشر يربطني به . انا معجب بأبيه من قبله وبه ايضاً ، وكلنا نسعى انطهر انفسنا وننقيها ، ناهيك بأنني اعلم ما علمت ، فاروِ له خبر ما رأيت وسمعت ، اقرأ عليه ما نسخت من دفاتري .

لقد سئمت الاسفار التي يعجز عنها المستطيع بنفسه فكيف المستطيع بغيره مثلي ، اما قال الشاعر :

ومـاذا تبتغي الشعراء مني

وقد جـاوزت حد الاربعين

فانا يا اخي ، احبو الى الخمسين ، فالاجدر بي ان اتأهب للرحلة الكبرى .

واطرق ابو العـلاء وسكت ، وكان التميمي ينـظر الى شيخه والحزن يكسو وجهـه ذبولا وفتوراً . ثم نهض اسمعيل

واخذ يد الشيخ وصافحه مودعاً . فامسك المعري بيده طويلا وقال : وفقك الله يا اسمعيل ، ولا رأيت مشقة رحلتك ، حقاً ان السفر قطعة من العذاب . واذا ما بلغت الحضرة فسلم على المولى الامام وقل له : ان خادمه شيخ وشاب ، وكبر على السفر ، واذا كان العذر من شيم الكرام ، فأجدر به ان يكون احدى خصال الامام ، فبصلاح الائمة صلاح الامة ، لا زال مولانا منار الملة ومستودع علوم الائمة .

وانحنى اسمعيل ليقبل يد الشيخ ، فانتفض ابو العلاء وهو يردد : معاذ الله .

وخرج اسمعيل متعثراً باذيال الخيبة وعاد ابو العلاء يدمدم فيهمهم . . .

ودخل الشيخ ابو الحسن علي بن عبد الله ابن ابي هاشم وشرع يكتب ، والشيخ يملي .

معتقره

١

خالط ابو العلاء الناس فلقي بينهم عناء وكداً ، وارتحل من لمعرة الى اللاذقية وانطاكية وطرابلس طالباً « علم الاوائل » ، فانفتح له كهف المعرفة فمنى النفس برحلة الى العراق ولم يثنه عن ذلك عماه ولا عجزه ولا بكاء امه . فلقي في تلك الهجرة ما لقي . لم تشف نفسه ، ولا ابرأت سقمها تلك المجامع العلمية ولا الجمعيات السرية ، كما كان يترجى ، فانقلب راجعاً الى المعرة بعد سنة وبضعة اشهر ، و « مرض العصر » قد تمكن منه كل التمكن ، فحاول الاستشفاء منه في وحدة قاسية فرضها على نفسه ولم يحد عن صراطها المستقيم قيد شعرة الا مرة واحدة ، حين خرج الى « صالح » يشفع بالمعرة بلده ،

فأسمعه « سجع الحمام » وسمع منه « زئير الاسد » . . .

كان شيخنا نحيل الجسم غريب الاطوار ، حاد الذكاء والطبع . كان عجيب الذاكرة ، قُفَـلة ، فجنى عليه ذكاؤه ، وحصرته ذاكرته في « نقطة البيكار » فعاش في بؤرة فكرة ثـابتة . والفكرة الثـابتة تكون في الحب كما تكون في الحرب ، وتكون في العفة كما تكون في الغلمة والشبق ، وتكون في العلم كما تكون في الجهالة ، وتكون في الغزل كما تكون في الفلسفة . فعمر ابن ابي ربيعة وبشار كالمتنبي والمعري . لكل من هؤلاء فكرة ثابتة لا محيص عنها وان تختلف الاتجاه والهدف .

رأى ابو العلاء عطف الناس عليه صدقة واحساناً ومنّا فآثر العزلة في بيته القاتم الاعماق الحاوي المخترق ، ورفـع عقيرته متغزلاً بتفرده البدع فقال :

وما للفتى الا انفراد ووحدة

اذا هو لم يرزق بلوغ المآرب

ثم طفق ينعى على الناس مساوىء اخلاقهم ويعيّرهم مكرهم ورياءهم ، فهم طغاة يعدو بعضهم على بعض ، كالذئب يأكل عند الغرة الذيبا ، وهم :

كلاب تغاوت او تعاوت لجيفة

واحسبني قد صرت ألأمها كلبا

اننا نجل قدر الشيخ ان يكون كما تواضع وقال ، ولكنه ، رحمه الله ، يجود بما جاد عن طبع وقد يكون مصيباً اذ يقول :

ان مازت الناس اخلاق يعاش بها

فانهم عند سوء الطبع اسواء

او كان كل بني حواء يشبهني

فبئس ما ولدت للناس حواء

بعدي عن الناس برء من سقامهم

وقربهم للحجى والدين ادواء

ثم تفور قدر سويدائه فيشتمنا كصاحبنا الآخر – المتنبي – بلا حساب فيقول :

وجوهكم كلف وافواهكم عدى ،

واكبادكم سود واعينكم زرق

وما بي طرق للمسير ولا السرى

لاني ضرير لا تضيء لي الطرق

وتوغل في اساءة الظن بالانسانية ففضل على بنيها الحطب

اليابس ، وهو فيما يقول كما قال النابغة في مدح صاحبه : ولا احاشي من الاقوام من احـد . النابغـة استثنى واحـداً وهو سليمان ، اما ابن سليمان هذا فقال :

عصا في يد الاعمى يروم بها الهدى

ابرّ به من كل خدن وصاحب

خير لعمري واهدى من « امامهم »

عكّاز اعمى هدته اذ غدا السبلا

وتذكر الاعمى « الحبيس » ان ليس كل ضرير يستطيع ان يحكم على نفسه بالحبس المؤبد فتذكر الرحمة ، وهي من طبعه وطبع كل عاجز غير مستطيع مثله ، فألان جانبه وقال يخاطبهم :

اذا مر اعمى فارحموه ، وأيقنوا ،

وان لم تكفوا ، ان كلكم اعمى

ثم ذكر ان الناس يقولون : اطرد الاعمى واكسر عصاه ، ما انت ادرى من ربه الذي اعمـاه ، فكيف يطلب منهم الحسنة بالدبوس فيقول لهم : انتم عميان مثلي ، فلا تغركم عيونكم المفتحة ؟ ففتش عن شعر فيه تؤدة ورفق فقال :

تصدّق عـلى الاعمى باخذ يمينه

لتهديه ، وامنن بافهـامك الصمّا

حسب المعري انه يستريح من تكاليف الحياة اذا اعتزل الناس ، فما انقضت سنة على تلك الرسالة التي وجهها الى « الجماعة » في المعرة معلناً خطته الجديدة حتى طار له صيت في الاقطار ، والناس يعجبهم كل غريب ، فتهافتوا عليه يطلبون عنده العلم في عصر الخفاء والاسرار ، يحدوهم اليه قوله الذي ملأ الآفاق :

بني زمني ، هل تعلمون سرائراً
علمت ولكني بها غير بائح

والشيخ ، كما نبأنا ، عنده ما عند جميع الناس من شعور واحساس ، فما ضاق ذرعاً بهؤلاء الذئاب ، نزلوا عنده او جاوروه ، وشرع يملي عليهم فلسفته وآراءه . ثم ما تمالك ان قال :

وماذا يبتغي الجلساء عندي
ارادوا منطقي واردت صمتي

وبما ان الكثيرين يفلسفون حول اقوال هذا الضرير فما علينا لو القينا دلونا بين الدلاء وتحذلقنا هنيهة ، فنتساءل مثلهم : هل يريد ابو العلاء من كلمة نطق وصمت شيئاً ابعد ؟ هل خطر على باله شيء مما سموه في عصره الباطني « ناطقاً وصامتاً » ؟ انني لارى الشيخ يمد جذوره في القلوب ، وينشر فروعه في العقول ، وهو يجري لغاية في كل ما يكتب . انه يقف بيكاره

عند نقطة ويبسط ساعده الآخر ليجعل كل شيء وسط الدائرة. الاشبه عندي ان شيخنا يهدم ويبني، يسرد كل ما عنده من افكار في احوال مختلفة، وينظمها شعراً لتحفظ وترسخ في اذهان تلاميذه، فجاء ما نسميه «اللزوميات» صورة حقيقية للتفكير الانساني الذي يختلف بين ليلة وضحاها. ولكن هذا الاختلاف الذي نرى لا يواري عنا وجه الرجل، فله اساليب خاصة يصطنعها في بث ما يعتقد. فاذا رأيته يهاجم بعنف وعتو وطغيان فاعلم انه ينفي ويهدم ويقوض وينسف ويدك دكاً، واذا رأيته يواري ويوارب، ويلقي تبعة الكلام على غيره، فاعلم انه كالرجال السياسيين الذين يشيعون الشائعات عما ينوون عمله وينتظرون بوادر تأثيره. فاذا قال الشيخ: قال قوم، او زعموا، او يقال، فاعلم انه يرائيك ويداورك ليرى ما تبدي، وكن واثقاً ان هذه الـ«يقال» وقال قوم ستصبح في مقام آخر عقيدة يدافع عنها الشيخ بسيف برهانه وترس منطقه.

أسمعت بالمخلوطة، تلك الاكلة المعمولة من جميع الحبوب التي تؤكل؟ ان هذه الحبوب متى اعتلجت في القدر تؤلف طعاماً خاصاً. وابو العلاء هو تلك المخلوطة الفاطمية الطعم. واذا قلنا فاطمي فكأننا نقول فيثاغوري افلاطوني فيه من

الارسططالية بمقدار البهارات والابازير .

يضحكني ذاك الذي يتساءل : اين عرف ابو العلاء ابيقور؟ وما شأن ابيقور هذا مع ابي العلاء وعند ابي العلاء الدعوة الفاطمية وعلومها السرية المستقاة من رأس نبع الفلسفة ؟ ما حاجة شيخنا الى الجداول ، الى ترجمة جالينوس لابيقور ، ففلسفة اليونان ، في عهده ، قد تغلغلت في العقائد المشرقية وهضمها علماء المسلمين والشباب المفكر ، وكانت تغلي بها الصدور والضمائر ، في عصر ابي العلاء ، غليان القدر على النار الدائمة ، لا فوق نار الحباحب ، كما عبّر ابو العلاء في الفصول والغايات عن حياته .

العنزة مقتولة والذئب حدها ، فما لنا نفتش عن الغريم ؟ تلك شنشنة نعرفها من اخزم . . . يريد ان يزعم انه اخترع البارود . . ان فلسفة ابي العلاء لا بل آراءه كلها نوعان : نوع مستمد ، كما قلت سابقاً ، من الاختبار الانساني ، وهو ما يطلق عليه اسم الفلسفة العامة ، وبالاختبار يهتدي كل من في رأسه عقل . ونوع يتجه اتجاها معلوماً ، ويعبّر او يترجم عن مذهب بعينه هو مذهب الفاطميين . فمن نوع الفلسفة العامة قوله :

واعط اباك النصف حيّاً وميّتاً
وفضّل عليه في كرامتها الامّا
اقلّك خفّا اذ اقلّتك مثقلا
وارضعت الحولين واحتملت تمّا
والقتك عن جهد، والقاك لذة
وضمت وشمّت مثلما ضمّ او شمّا

يذكرني قول المعري هذا خلفاً وقع بين خالي وجدي لامي . منّ جدي على خالي بتخليفه اياه بما يشبه فلسفة الحبيس . وهنا اقول كما قال صاحبنا هذاك ، عن المعري وابيقور ولوكريس : لا ادري اهذا توارد خواطر بين المرحوم الخال طنوس والمعري ، ترى اين قرأ الخال لزوميات المعري حتى سرق فلسفته هذه ؟ انه لم يكن يقرأ ويكتب . اتظن ان خالي اخذ هذه الفلسفة العلائية عن الاطباء الدجالين ، عن جالينوس ، عن ابيقور ؟ . .

الا يشبه قول المعري هذا قول صاحب « الميجانا » : امي وبيي كيّفوا تا جيت انا ؟

فهل نعد هذا فلسفة ؟ لا ورحمة خالي الفيلسوف ، ان شيخنا ابا العلاء داعي طريقة وشاعر مذهب معروف لا صاحب فلسفة ،

وهذا واضح في اقوال عديدة تنطق بما يعني نطقاً صريحاً .

واعجب من هذا زعم صاحبنا ان « الفصول والغايات » هي اصل اللزوميات مع ان رائحة الهرم تنبعث من الفصول والغايات وهي تدل دلالة صارخة على انها اعدت زاداً للرحلة الكبرى . . . ففيها رائحة الزبور الداودية ، رائحة التوبة النصوح . ان جميع رسائل المعري وفصوله مضمونها واحد ونواتها اللزوميات وكأنما كتبها كلها ليقرر طريقته ويؤيد مذهبه .

ويتعجب بعضهم مما يرون عند الشيخ من متناقضات ويفتشون عن « سره » تحت الالفاظ ، واسخفهم تفتيشاً ذاك الذي قال بالتشابه بين المعري ولوكريس الشاعر اللاتيني اذ قرأ هذين البيتين :

تشابهت الخلائق والبرايا
وان مازتهم صور ركسنه
وجرم في الحقيقة مثل جرم
ولكن الحروف به عكسنه

اني اراهم يتقعرون جداً حتى يبعدوا بأبي العلاء الى آفاق واجواء غريبة عجيبة . لا ادري اذا كان المعري يعني هؤلاء

بقوله في سقط الزند :

يكررني ليفهمني اناس

كما كررت معنى مستعادا

ولا عجب فلهؤلاء اضراب ، اعني اولئك المفلوكين الذين يغربون في استيحاء نبوءة دانيال ورؤيا يوحنا واخبار نوستراداميس . . .

والاعجب من هذا وذاك ان يقول هذا الرجل : ان تكلف ابي العلاء قافيتين في اللزوميات والفصول نتيجة عبث وتسلية ونتيجة فراغ ولعب ، كأنه يجهل ان المعري عاش في عصر الصنعة ، وانه معلم مدرسة لو كانت في زماننا لسميت جامعة ، وكان عميدها سبعة دكاترة مثل تنين الرؤيا . . . فهو في تآليفه نثراً وشعراً يمد يده الى كل دوحة ، وخصوصاً الى تلك التي اورفت في اعلى عليين والى تلك التي نجمت في قعر الجحيم . فكر جبار يعنيه كل ما يعني طلابه الآتين اليه من كل فج عميق يطلبون العلم عنده ، وهو يخاطبهم :

وكم شاهدت من عجب وخطب

ومر الدهر بالانسان يسلي

تغير دولة وظهور اخرى

ونسخ شرائع وقيام رسل

كان شيخهم يعالج جميع قضاياهم ويهذب نفوسهم واجسادهم واخلاقهم ، فهو يعلمهم عملياً ونظرياً ، ومصدر نظرياته عقله الجبار ، ومختبر عملياته جسده النحيل الذي قسا عليه اذ صيره حقل اختبار ، فكان لمريديه وقاصدي فضله واعظاً باللسان والمثل يطبق علمه على عمله .

واي حرج على الشيخ ان ترك قضايا معلقة فكم ترك الفلاسفة قبله من قضايا وقفوا حيالها حيارى ، وان ناقض نفسه فليس هو باعظم من ارسطو وافلاطون فكم من تناقض عندهما . ولكن ابا العلاء لم يناقض نفسه ابداً ، فما يعده بعضهم تناقضاً ليس الا تقية في عصر كانت فيه كلمة « علم الاوائل » تقضي على الرجل . وكم قضت على رجال جاؤوا بعد المعري بقرن وقرنين . ان ما يعدونه تناقضاً ليس الا سخرية ، فاقرأ بتأمل وتجرد تتبين صحة زعمي .

يظن بعضهم ان ابا العلاء يبتعد عن الفاطمية حين يقول نافياً ظهور الامام :

يرتجي الناس ان يقوم « امام
ناطق » في الكتيبة الخرساء

كذب الظن لا امام سوى العقل
مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحمة
عند المسير والارساء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصادق
يضحي ثقلا على الجلساء

وهذا الظن منتهى الشطط لان « الامام » يتوارى في قمة الدعوة الفاطمية — الدعوة التاسعة — ويحل محله العقل . يصير الامام رمزاً لمعنى ليس اكثر ، واليك النص : « الفلاسفة انبياء حكمة الخاصة ، وان الامام انما وجوده في العالم الروحاني اذا صرنا اليه بالرياضة في المعارف ، وظهوره الان انما هو ظهور امره ونهيه على لسان اوليائه . »

وفي هذا المعتقد ان الانسان ينتقل من حال الى حال اذا صفى نفسه ونقاها وهذه هي غايتهم من الزهد والتقشف ، اي بلوغ التسامي الى اعلى حد يستطيع بشري بلوغه .

٢

اما « العقل » العلائي فهو العقل اليوناني الفيثاغوري بعينه ،

وكذلك العقل الفاطمي ، والنفس والجسد العلانيان فيثاغوريان ايضاً ، فهو يرى كما يرى الفيثاغوريون ان الطهارة في خلاص النفس من البدن لان الجسد قبر للنفس وهو عدوها اللدود ، وفي هذا قال المعري :

ارائي في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ، ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسم الخبيث

ومذهب الفيثاغوريين ان وسيلة النجاة هي التطهير والزهد وتغليب العقل على الحواس . فان الحواس كثرة وشقاق تخدعنا بامور زائلة ، والعقل وحدة ومحبة ، والغاية القصوى العودة الى المحبة والوحدة ، والى هذا ذهب افلاطون بعدهم فقال : ان حياة النفس لا تتحقق تماماً الا بخلاصها من المادة في عالم روحي مثلها . و « العقيدة ثابتة » يدافع عنها بشدة .

والفيثاغورية كالمنظمات الدينية اليوم ، عاش اعضاؤها في عفة وبساطة لبس ومأكل ، وقد حرمت اكل لحم الحيوان وبعض النبات — كما حرم الحاكم اكل الملوخية مثلا . لسنا نقول ان ابا العلاء حذا حذو هؤلاء كما اننا لا نتساءل ان كان المعري

عرف ذلك ومن اين عرفه فهو من لدات « اخوان الصفاء » وقد حضر مجالسهم ، وقد يكون ناقشهم وجادلهم ، حين استشارهم قبل ان يختط لنفسه خطته التي سار عليها طول حياته . اليس يقول كما مر بك في رسالته الى « الجماعة » في المعرة : « فاجمعت على ذلك واستخرت الله فيه ، بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزماً وعدّه اذا تم رشدا » ؟

لا يليق باللبيب ان يتساءل عن كل هذا لان عصر المعري انضج عصور الفلسفة العربية ، وابناؤه عرفوا مثلنا فلسفة اليونان وتأثروا بها . كانوا عصباً عصباً وجماعات جماعات يطعّمون الاديان بهذه البراعم الجديدة القديمة والحكومة تطاردهم وتقتلهم فرادى وثنى ، صبراً ونقداً . تصلب وتغرق وتشرد وتنفي ، والفلسفة تزداد نمواً وانتشاراً .

كانوا يسمون هؤلاء زنادقة ، وابو العلاء يحدثهم لابن القارح بقوله : « اما غيظه ـ اي ابن القارح ـ على الزنادقة فآجره الله عليه كما آجره على الظمأ في طريق مكة ، واصطلاء الشمس بعرفة ، ومبيته بالمزدلفة .

« ولا ريب انه ابتهل الى الله ، سبحانه ، في الايام المعدودات والمعلومات ان يثبت هضاب الاسلام . ولكن الزندقة داء

قديم . . . وقد كانت ملوك الفرس تقتل على الزندقة . والزنادقة هم الذين يسمون « الدهرية » ولا يقولون بنبوّة ولا كتاب . » ويقول له في مقام آخر اذ يحدثه عن الحلوليين : « ولم تكن العرب الجاهلية تقدم على هذه العظائم ، بل كانت عقولهم تجنح الى رأي الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء ، اذ كان اكثر الفلاسفة لا يقولون بنبيّ . »

وبعد ، فما هو الدين عند المعري ؟ اليس كالذي عند سقراط : « تكريم الضمير النقي للعدالة الالهية لا تقديم القرابين وتلاوة الصلوات من ايد وافواه ملطخة بالاثم . وان النفس متمايزة من البدن فلا تفسد بفساده ، بل تخلص بالموت من سجنها وتعود الى صفاء طبيعتها . القوانين العادلة صادرة عن العقل ومطابقة للطبيعة الحق ، فمن يحترم القوانين العادلة يحترم العقل والنظام الالهي . والانسان يريد الخير دائماً ويهرب من الشر ، فمتى تبين ماهيته وعرف خيره بما هو انسان اراده حتماً ، اما الشهواني فرجل جهل نفسه وخيره ، ولا يعقل ان يرتكب الشر عمداً ، وعلى ذلك فالفضيلة علم والرذيلة جهل . » وقد جاء في كتب الفاطميين (الدروز) : الناس مولودون جهالا .

هذا ايمان سقراط بالعقل وحبه للخير ، وما رأيت ابا العلاء

يدعي اكثر من هذا ، ولا يدعو الى ابعد من ذلك . وابو العلاء لم يخف على معاصريه ، فعرفوه واكتشفوه قبل ان نكتشفه نحن كما ادعى بعضنا . لقد عرفوه كما عرف ابن الزيات الجاحظ فقال : اثق بظرفه ولا اثق بدينه .

وبعد ، أليس كل ما تحدثنا عنه مدموجاً في الدعوات والعلوم الفاطمية ؟ فلا حاجة اذن ان يفتش عنه ابو العلاء هنا وهناك ، كما انه ليس لنا ان نتساءل ان كان قرأ سقراط وافلاطون وابيقور ولوكريس وموكريس . . . فكل هذا كان معروفاً من القوم ، ناهيك بان العقل في كل زمان ومكان يدل على هذا ، وابو العلاء لم يؤمن بغير العقل الذي قدسه فلاسفة اليونان جميعاً وبه استعانت الدعوة الفاطمية وعليه بنت اسسها ، حتى اليوم .

اما « الخير » فهو عندهم بمثابة الله ، بل هو الله ، وهذا ما دعا اليه الفاطميون ، واذنوا به ، وذكروه مع الله : « حيّ على خير العمل . » وفي الخير يقول افلاطون : « الخير شيء اسمى من الماهية بما لا يقاس كرامة وقدراً ، وهو رباط كل شيء واساسه ، والخير غاية العقل القصوى . » والمحرك الاول يصير عند ارسطو « هو الخير بالذات فهو مبدأ الحركة ، هو المبدأ المتعلقة به السماء

والطبيعة . » ويقول ارسطو ايضاً : « كل فن وكل فحص عقلي ، وكل فعل وكل اختيار مروّى فهو يرمي الى خير ما ، لذلك رسم الخير بحق انه ما اليه يقصد البشر وعلى معرفة الخير يتوقف توجيه الحياة . »

اما اللذة التي عافها المعري فهي عند المعلم الالهي « غاية العبيد والبهائم ، وهي حياة العوامّ الاجلاف » ، والسعادة تتحقق « بتأمل الخير الاعظم والاتحاد به » ، والميول تصير خيّرة باتباع العقل وشريرة بعصيانه .

« ومن يتوهم ان المثابرة غير لازمة للحصول على الكمال مثله مثل المريض الذي يريد الشفاء ولا يستعمل وسائله . »

ويقول ارسطو : « الخير يسمى باسماء كثيرة فيقال له الله ، او العناية ، او العقل . »

اما ابو العلاء فدعا الى الخير ، وفهمه كما فهم النصارى « الندامة الكاملة » اي لا خوفاً من الجحيم ولا طمعاً بالنعيم ، وهي عندهم توصل الى ملكوت الله تواً وبلا واسطة . اما الكهنة فيقولون انها صعبة جداً فلا يخاطر المؤمن بنفسه ما زال الكاهن موجوداً . وشاعرنا يقول في هذا :

ولتفعل النفس الجميل لانه

خير واحسن لا لاجل ثوابها

حالي حال اليائس الراجي

وانما ارجع ادراجي

اذا رأيت الخير في رقدتي

عددتها ليلة معراجي

فان قدرت فلا تفعل سوى حسن

بين الانام وجانب كل ما قبحا

ما الخير صوم يذوب الصائمون به

ولا صلاة ولا صوف على الجسد

وانما هو ترك الشر مطّرحاً

ونفضك الصدر من غلّ ومن حسد

عش مجبراً او غير مجبر

فالخلق مربوب مدبّر

الخير يهمس بينهم

ويقام للسوآت منبر

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم

على صلاة يوم اصبح هالكا

وينفر عقلي مغضباً ان تركته

سدى واتبعت الشافعي ومالكا

كن صاحب الخير تنويه وتفعله
مع الانام على ان لا يدينوكا

ولا تكن لسبيل الشر مبتكراً
اصرف الى الخير من نهج الهدى سبلك

والخير محبوب ولكنه
يعجز عنه الحي او يكسل

والارض للطوفان مشتاقة
لعلها من درن تغسل

قد كثر الشر على ظهرها
واتهم المرسل والمرسل

سأتبع من يدعو الى الخير جاهداً
وارحل عنها ما امامي سوى عقلي

اذا ما فعلت الخير فاجعله خالصاً
لربك وازجر عن مديحك ألسنا

فكونك في هذي الحياة مصيبة
يعزيك عنها ان تبر وتحسنا

واخيراً يصرخ :

واﻟﺨﻴﺮ افضل ما اعتقدت ، فلا تكن
هملا ، وصلّ بقبلة ، او زمزم

لقد مرت بك كلمة « طوفان » فاعلم ان ابا العلاء لا يعني الطوفان المعلوم ، وانما يعني معنى فاطمياً ابعد وهو قوة الخير التي تطغى على كل شيء في المنتهى فتغسل ادران الكون ، ويسود « اهل الخير » .

٣

اخالنا شبعنا كلاماً عن « العقل » و « الخير » العلائيين ، فلننتقل الى حياة شاعر العقل العملية . بعد وفاة سقراط اسرف تلميذه انتستانس في محاكاته معيشة وحرية قول ، وكذلك فعل تلامذة انتستانس فاوجبوا على « المريد » ان يعدل عن خيرات الدنيا وملاذها ، وان يتنزل عن مكانته الاجتماعية ، ويرسل شعر الرأس واللحية ، وسمي هؤلاء « بالكلبية » لاجتماعهم في مكان اسمه « الكلب السريع » فكانوا يجابهون الحضور بنقائصهم في قول جريء ، مدعين انهم يؤدون مهمة كلفهم بها الاله « تروس » ، وما مهمتهم تلك غير ملاحظة عيوب الناس والتشهير بها ، متخذين من اسمهم ـ الكلبية ـ تشبيهاً . فيقولون انهم حراس الفضيلة

ينبحون على الرذيلة . وفي الانجيل الطاهر شيء من هذا : ملعون كل كلب لا ينبح . فهل نقدر ان نقول كغيرنا ان شيخنا تشبّه بهؤلاء واولئك بالقول والعمل والزهد وشظف العيش ؟ واذا التفتنا الى « مولانا » الحاكم الامام الفاطمي رأينا انه نزع في آخر حياته قبل « الغيبة » الى مثل هذا الزهد ، كما سترى . ناهيك باننا لا نطلب شيئاً عند فلاسفة اليونان الا وجدناه عند « الفاطمية » وتعاليمها السرية والعلنية ، قولاً وعملاً .

وفي استقصائي الاخير عن فلاسفة اليونان عامة ، والكلبيين خاصة ، رأيت انهم اقلّ اهل بلادهم شعوراً بالوطنية الضيقة ، فهم لا يحرصون عليها ، او لا يبالون بها ، بل يميلون الى الانسانية الجامعة : الدولية . وهذا ما وجدته عند شيخنا ابي العلاء ، فهو تنوخي عربي قح ولا يذكر القومية ولا العروبة ، ان لم يقل بالعكس ، كأنه ليس يعنيه من الدنيا الا المعرة والذين يسميهم « الجماعة » . وفيما خلا ذلك فهو يخاطب الناس اجمعين . فهل هذا اتفاق او تشبه بالفلاسفة ؟ لست ادري . والذي ادريه هو ان هذا هو الواقع . ولكن الذي يبدو لي هو ان الفاطمية لا تقوم على العروبة وان كان ائمتها احفاد النبي (صلعم) . لم ار للعرب والعروبة ذكراً عند الشيخ بل

رأيته يتعدى ذلك الى التبرؤ من شعار قومه فيقول :

فشعاري « قاطع » وكان شعاراً

لتنوخ في سالف الدهر « واصل »

واذا فتشنا عن سبب ترك المعري الزواج فاننا نجده عند فلاسفة اليونان ايضاً . فأبيقور يقول : « الصداقة نافعة لذيذة والحكيم يتعهدها كوسيلة للسعادة ولكنه يتجنب الحب لانه مصدر اضطراب للنفس . كذلك لا يتزوج الحكيم في الاكثر لما يجره الزواج من شواغل متعددة . وللسبب عينه ينبذ الحكيم المناصب الحكومية وينفض يده من الشؤون العامية . »

ولا اخالك نسيت ما مر بنا من قول المعز الفاطمي — جد الحاكم — لجماعته : « واحدة تكفيكم . »

اما الجسم في رأي ابي العلاء ورأيهم فثوب يخلق وبيت يتهدم . وما اجساد الصبيان الذين قضوا صغاراً الا ثياب غير محكمة النسج :

واعمار الذين قضوا صغاراً

كأثواب بلين وما لبسنه

وفي المذهب الفاطمي ان النفس لا تستطيع حياة بلا جسم ولذلك عبّر عنها المعري بالقرون في رسائله الى الجماعة . اما

كيف نسج هذا القميص — ومنها جاء التقمص عندهم — فاليك رأي الشيخ :

الخلق من اربع مجمعة
نار وماء وتربة وهوا
ان السهى والسماك ما غفلا
عن ذكر مولاهما ولا سهوا
والنيّران المواصلان سنا
ان نلهُ في ارضنا فما لهوا
والشمس والغيث طاهيان له
يطعم اهل البلاد ما طهوا

رحم الله الشيخ ! الجسم طبخة طيبة يدب اليها الفساد متى بردت ، فبالله نعوذ من البرد ، ومن النومة الطويلة في عب الارض .

اما « الرجعة » او « العودة » ويراد بها عودة الانسان الى الحياة بنفسه وجسده فأبو العلاء يجحدها . وهذا ايضاً مذهب يوناني فيثاغوري وفيه يقول اوديموس تلميذ ارسطو لتلاميذه : « اذا صدقنا الفيثاغوريين فسيجيء يوم نجتمع به ثانية في هذا المكان فتجلسون كما انتم لتسمعوا الي واتحدث انا اليكم كما افعل

الآن . »

وهذا ما يعبر عنه اخوان الصفاء بالكور والدور ، ويسمونه « السنة الكبرى » ، ومقدارها ست وثلاثون الف سنة . ان ابا العلاء لا يؤمن بها ، ولكن لا تنس ان العودة والتناسخ غير التقمص الذي يؤمن به ابو العلاء كما سترى . ولهذا يهاجم ابو العلاء البعث بكل ما فيه من قوى وسخر وهزء فيقول :

زعموا انني سأرجع شرخا

كيف لي كيف لي وذاك التماسي

وازور الجنان احبر فيها

بعد طول المقام في الارماس

وبزول العيون عني اذا حمّ

بعين الحياة ثمّ انغماسي

ايما طارق اصابك يا طارق

حتى مسّاك للغي ماسي

ضاع دين « الداعي » فرحت تروم

الدين عند القسيس والشماس

وقد كتب في هذا كتاباً ــ رسالة الغفران ــ سخر به ايما سخر ، كما انه نفى « العودة » نفياً باتاً لا لبس فيه فقال :

اترجّون ان « اعود » اليكم

لا ترجّوا فانني لا اعود

وقال في موضع آخر :

اسير وما اعود ، وما رجوعي

وقد كان الرحيل رحيل قال

امور يلتبسن على البرايا

كأن العقل منها في عقال

اما التناسخ فالشيخ ينفيه نفياً ويشجبه شجباً ، وذلك ظاهر خصوصاً في رسالة الغفران حيث يسخر بالنصيرية ـ جيرانه ـ اصحاب هذا المعتقد ـ كما يقال ـ فيقول بلسان احدهم :

اعجبي امنا لصرف الليالي

جعلت اختنا سكينة فاره

فاطردي هذه السنانير عنها

واتركيها وما تضم الغراره

وكقوله في اللزوميات :

يا آكل التفاح لا تبعدن

ولا يقم يوم ردى ناكلك

قال النصيري ، وما قلته

فاسمع وشجع في الوغى نا كلك

قد كنت في دهرك تفاحة

وكان تفـاحك ذا آكلك

فهل لي ان اظن كما ظن ذاك انـه اخـذهـا من قول اكسانوفان حين مر ذات يوم برجل يضرب كلباً فاخذته الشفقة فصاح وهو ينتحب : لا تضربه يا هذا ، انها نفس صديق لي قد عرفته من صوته .

وللشيخ المعري خبران يشبهان ما حكي عن اكسانوفان فقال في رسالة الغفران : « وحدثت عن رجـل من رؤساء المنجمين من اهل حران . اقام في بلدنا ــ المعرة ــ زماناً . فخرج مع قوم يتنزهون فمر والثور يكرب ، فقال لاصحـابه : لا شك في ان هذا الثور رجل كان يعرف بخلف بـ « حران » . وجعل يصيح به : يا خلف ، فيتفق ان يخور ذلك الثور فيقول لاصحابه : الا ترون صحة ما خبرتكم به ؟

« وحكي لي عن رجل ممن يقول بالتناسخ انه قال : رأيت في النوم ابي ، وهو يقول : ابني ، ان روحي قد نقلت الى جمل اعور في قطار فلان ، واني قد اشتهيت بطيخة . فاخذت بطيخة وسألت عن ذلك القطار ، فوجدت فيه جملاً اعور ،

فدنوت منه بالبطيخة فاخذها اخذ مريد مشته . »

ارأيت كيف يسخر ؟ ان ابا العلاء يساور ما يجحده مساورة ، فهو يعتقد نوعاً من التناسخ ، وهو ما يعبر بالمذهب الفاطمي — الدرزي — بالتقمص ، فاسمع كيف يحدثنا الشيخ عن التناسخ :

وجدنا اتباع الشرع حزماً لذي النهى
ومن جرب الايام لم ينكر النسخا

فما بال هذا العصر ما فيه آية
من المسخ ان كانت يهود رأت مسخا

وقال باحكام التناسخ معشر
غلوا فاجازوا الفسخ في ذاك والرسخا

البيت تدلك كلمة « غلوا » على ان الشيخ يرى النسخ ؟ وان كابرت وقلت لا ، فسأدلك دلالة قاطعة مانعة . . . اما الان فاسمع ما هذا النسخ والمسخ والفسخ والرسخ : فالنسخ هو نقل الروح من جسم الى جسم ارفع منه وهذا ما يعتقده الشيخ ويترجاه ، ولا اكراه في الدين . اما المسخ فنقل الارواح الى اجسام البهائم ذوات الاربع ، والفسخ نقلها الى الحشرات ، والرسخ هو ان تنقل الى النبات والجماد كالحجارة والحديد ، وهذه الثلاثة الاخيرة ينكرها شيخنا كل الانكار . اما النسخ

وهو ما يسمونه التقمص فسنحدثك عنه قريباً جداً .

وقد علمنا مما قرأنا في احد كتب المذهب الفاطمي ، ان اخواننا بني معروف يشجبون التناسخ ويلعنون النصيري الذي يقول بذلك ، اذ لا يعقل ان الله يعاقب رجلاً عاقلاً يدرك بمسخه خنزيراً او بتحويله حديداً ، فالحكمة ان يكون عاقلا ليعرف العذاب ويتوب .

وعند افلاطون يكون التناسخ بتحول بعض الاحياء الى بعض بحسب ما يكسبون او يخسرون من العقل ، وفي هذا يقول ابو العلاء :

يقولون ان الجسم ينقل روحه
الى غيره حتى يهذبها الصقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
اذا لم يؤيد ما اتوك به العقل
فعش وادعاً وارفق بنفسك طالباً
فان حسام الهند ينهكه الصقل

اما التقمص الذي قلت لك ان الشيخ يعتقده فنحن لا نفتري ذلك افتراء . يعتقد ابو العلاء ان هذا الجسم غير مسؤول عما جنى لانه لباس يبلى ، او بيت يتداعى ، فيقول في هذا

اياتاً عديدة اذكر لك منها :

وجسمي شمعة والنفس نار

اذا حان الردى خمدت بأف

تعود الى الارض اجسادنا

ونلحق بالعنصر الطاهر

ويقضي بنا فرضه ناسك

يمرّ اليدين على الظاهر

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة

وحق لسكان البرية ان يبكوا

تحطمنا الايام حتى كأننا

زجاج ولكن لا يعاد له سبك

مضى الانام ولولا علم حالهم

لقلت قول زهير : اية سلكوا

في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا

منه فكيف اعتقادي انهم هلكوا

وردت الى دار المصائب مجبراً

واصبحت فيها ليس يعجبني النقل

والجسم للروح دار طالما لقيت

هدما وحق لرب الدار تحويل

رأيتك في لج من البحر سابحاً

تلوم بني الدنيا وانت مليم

يقول الحجى هل لي اذا مت راحة

فان عذابي في الحياة أليم

وأجسامنا مثل الديار لانفس

جوائز منها « جاهل » وحليم

فاما انهدام قبل رحلة ظاعن

واما رحيل والمحل سليم

وقد زعموا هذي النفوس بواقياً

تشكل في اجسامها وتهذب

وتنقل منها فالسعيد مكرّم

بما هو لاقٍ والشقي مشذب

حرق الهند من يموت فما زا

روه في روحة ولا تبكير

واستراحوا من ضغطة القبر ميتاً

وسؤال لمنكر ونكير

ويحكم ان رأيتموني يوماً

حبة في الثرى ولا تقطوني

واليك الان ، بعدما رأيت ما رأيت ، موافقته للمذهب الفاطمي القائم اليوم بكل وضوح :

تقادم شخص مضى
فاحدث منه البدل
وتقدم الارض نفوس اتت
مخلوقة من انفس ثاويه

واذا رأيت ما يناقض هذا عند الشيخ فاعلم انه تقية ، ولا تحاول ان تفتش عن سره الذي يلهيك به . وقبل ان تقفل باب هذا البحث لا بد من كلمة : خلط بعضهم في فهم ابي العلاء اذ رأوا في اللزوميات وغيرها حملة على الشيعة ، فهو لا يعني بذلك الشيعة المعروفة بل يعني جيرانه النصيريين الذين — يقال — انهم يحللون اخذ بناتهم واخواتهم فيقول فيهم :

اقرّوا بالاله واثبتوه
وقالوا لا نبي ولا كتاب
ووطء بناتنا حلّ مباح
رويدكم فقد بطل العتاب
تمادوا في العتاب فلم يتوبوا

ولو سمعوا صليل السيف تابوا

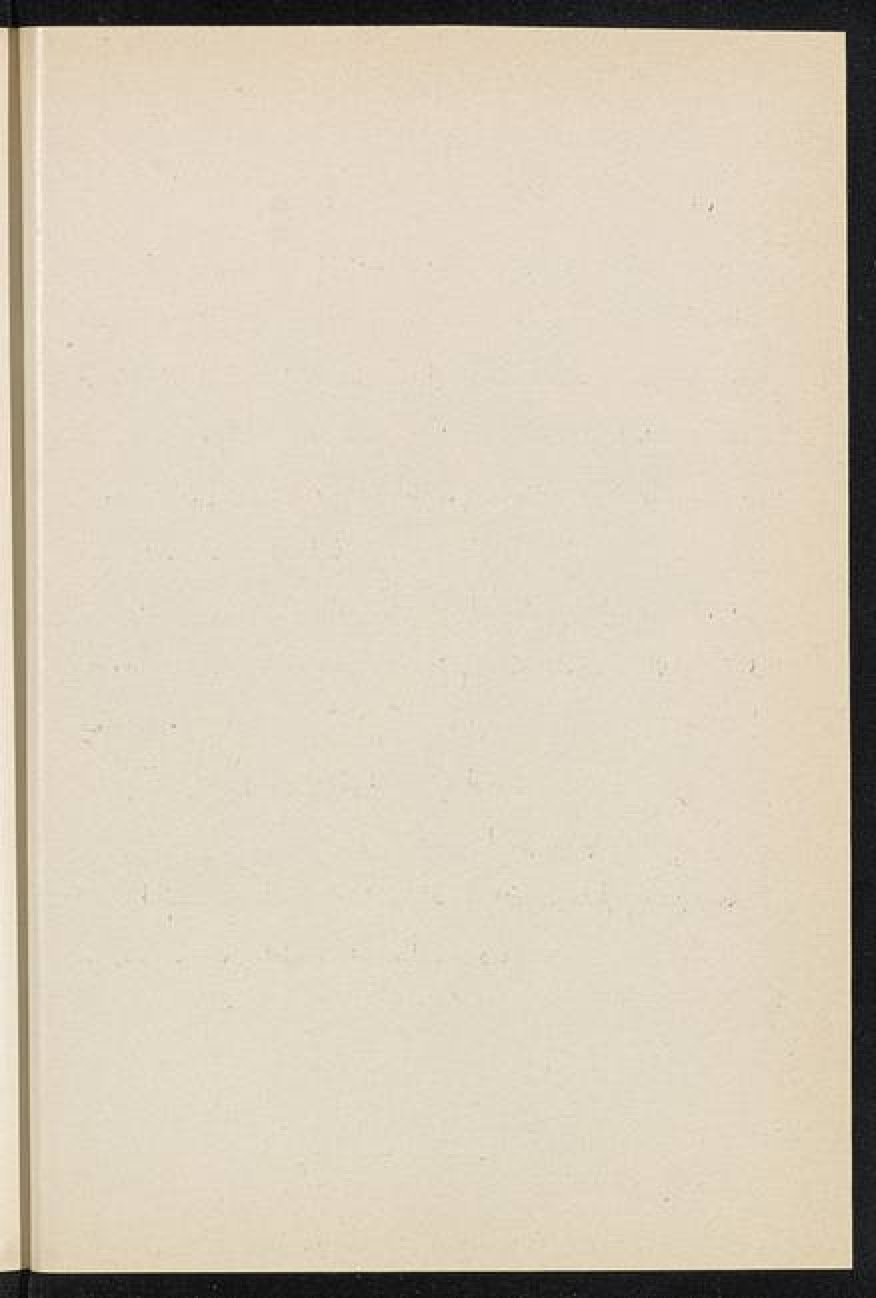
وظن بعضهم ان ابا العلاء يسخر ويهزأ في البيت الاخير ، فليس هنا شيء من هذا ، انه يعني النصيري الذي استجاب للدعوة الفاطمية ثم ارتد عنها وقال بمذهب خاص اجاز به نكح البنات والاخوات . ولا اتعجب انا ان رأيت ابا العلاء وكتاب المذهب الدرزي يشجبان هذا الرجل ويلعنانه فكلاهما يصدر عن نبع واحد هو « الفاطمية » .

واذا اردت ان اطابق بين اقوال الشيخ والمذهب الفاطمي فالادلة صارخة ، وهذا هو سر ابي العلاء المكتوم الذي يقول فيه :

آه لاسرار الفؤاد غواليا

في الصدر اكتم دونها واجمجم

ولكنك سترى ، ان شاء الله ، ان سره لم يدفن معه ، بل باح به حين اطمأن الى رأسه ودمه .




ابو العلاء والحاكم

الليلة الاولى

كانوا يصلون على امير المؤمنين الفاطمي كما يصلى على النبي فابطلها الامام ابو علي ، اي الحاكم بامر الله . وحرم تقبيل الارض بين يديه ولثم يده وركابه اذ لا يجوز الانحناء الى الارض لمخلوق . ومنع ضرب الطبول والابواق حول القصر ، وركب يوم عيد الفطر الى المصلّى بلا زينة ولا موكب فخم . ثم اخذ يرتدي ثياباً بسيطة او درّاعة صوف بيضاء ويتعمم بفوطة وينتعل حذاء عربياً ساذجاً ـ مداساً ـ وغدا يطوف في القاهرة دون موكب ولا ضجة .

وبعد مرضه سنة ٤٠٧ هجرية جنح الى تصوف غريب فلم يقلّم اظافره واطلق شعره حتى تدلى على كتفيه ، وبدل الثياب البيضاء الساذجة بثياب سود ، فكان يلبس جبة من الصوف

الاسود العادي قد لا يخلعها حتى يعلوها العرق والرثاثة ، وكثيراً ما تكون مرقعة من سائر الالوان .

وفي الليلة الخامسة والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١ كان الحاكم مختلياً فخطرت على باله عبارة الزعيم الباطني : « واذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به . . . فعلى الفلاسفة معوّلنا . » فطفق يكررها . وبينا هو هائم في جو تفكيره المعتكر ينتظر ساعة الطواف ليرقب النجم الذي يخشى ظهوره اذا بالحاجب يستأذن للداعي اسمعيل التميمي ، فدخل منكس الطرف ، وابتدر الحاكم الكلام بلهجة العاتب المؤنب : عدت يا اسمعيل ! حال الحول على غيبتك . واين الرجل ؟

فخر اسمعيل الى ذقنه ليقبل الارض فانتهره الحاكم : اتق الله ، انسيت اننا نسخناها ؟ قل اين الشيخ . فرفع اسمعيل طرفه الى مولانا فرآه منسدل الشعر طويل الاظافر ، وعليه مرقعة تتحدث كل رقعة منها بلسان غريب عن افكار الفيلسوف الهائم . ارتاع الداعي وانحنى ، وهو يقول بصوت كأنه يصدر من خلف الزجاج : رخص لي الكلام يا مولانا .

فاجاب الحاكم : تكلم . ومتى كنا نحظر القول على دعاتنا ؟

فقال الداعي : رأيتني يا مولاي ، امامك كالواقف امام اسد الله ، فتذكرت قول الشاعر : لدى اسد . . . فجرى لسان الحاكم غير مختار فأتم هو والداعي بيت زهير :

شاك السلاح مقذف

له لبد اظفاره لم تقلم

ولم ندر ما جال في خاطر مولانا حتى تبسم . وكأنه ادرك انه زهي وتكبر فوبخ نفسه امام الداعي بقوله لها : رويدك لا تغتري ، ما حفوت ولا نقيت بعد . ثم تغير وجهه فالتفت الى اسمعيل التفاتة ارعبته وقال له : قل اين الرجل .

فحنا اسمعيل رأسه وقال : لم يجيء يا مولانا .

ـ عجيب ! ايؤثر المعرة على القاهرة ، وبيته على دار الحكمة ؟

ـ نعم يا مولانا ، قال لي لن ابرح محبسي ، على هذا عاهدت القرون .

فصاح الحاكم : القرون ! اهكذا عبر عن النفس ؟

ـ نعم يا مولانا ، انه افاهم ، وقد اوضح هذا شعراً فقال :

والجسم كالثوب على روحه

ينزع ان يخلق او يتسخ

فأطرق الحاكم وقال : كأنه يسمع كل ما يقال في « دار الحكمة » . ثم حدق الى الداعي وقال : كيف لا يأتي الينا والمجد ينتظره ؟

– انه يزدري كل مجد يا مولانا ، يرى جلوسه على اللبد شتاء وعلى الحصير صيفاً خيراً من الف عرش .

– عجيب ! ادعوته باسمي ؟ أدرى اني اريده سميراً ورفيقاً وجليساً ومناظراً ؟

– نعم درى واحتج بيمينه ، فما لنا وله .

وهاج الحاكم تطاول اسمعيل فقال له : لولا حرمة الدعوة لاخمدت انفاسك .

فصاح اسمعيل مرعوباً : عفوك مولانا ، وغفرانك .

– تكلم .

– قد اطلعني الرجل على جميع ما يكتب وينظم ويملي على تلاميذه . قد تلمذت له كل مدة غيبتي عن الحضرة . انه يعمل « للدعوة » ما لا يعمله جميع الدعاة ، فبيته يعج بالوفود ، وفيه تلقى دروس لا تلقيها « دار الحكمة » . نحن ندعو سراً وهو يعلّم جهراً . وكتابه الذي يمليه على طلابه مرتب على نسق الدعوات . انه يرقيهم فيها درجة درجة .

. فاطرق الحاكم قليلا وسكت الداعي . وكان صمت وجيز قال الحاكم على اثره : وماذا قال حين ذكرتني ؟

— قال انك سراج المستنيرين ، وهو يقتفي اثرك وآثار آبائك صلوات الله عليهم ، ليدرك عن طريق النسك والزهد صفاء النفس ونقاءها . . .

. فسكت الحاكم هنيهة واطرق ، ثم رفع رأسه وقال : لا بد من مجيئه .

— ماذا تريد منه يا مولانا وهو القائل :

توحد فان الله ربك واحد

ولا ترغبن في عشرة الرؤساء

فمط الحاكم شفتيه حتى برز شارباه بروزاً عنيفاً ، فقال الداعي : وهو يعلّم اللاجئين اليه :

افيقوا افيقوا يا غواة ، فانما

دياناتكم مكر من القدماء

ارادوا بها جمع الحطام فأدركوا

وبادوا ، وماتت سنّة اللؤماء

يقولون هذا الدهر قد حان موته

ولم يبق في الايام غير ذماء

وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه

فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

فكاد الحاكم لا يصدق ما يسمع. فقال الداعي: واسمع مولانا غير مأمور، ما يقول ايضاً:

هفت الحنيفة، والنصارى ما اهتدت

ويهود حارت، والمجوس مضلله

اثنان اهل الارض ذو «عقل» بلا

دين وآخر دين لا عقل له

ورأى اسمعيل الحاكم مقبلا عليه بوجهه فأفرغ ما في جعبته حول هذا الموضوع:

واخوان الفطانة في الخيال

كأنهم لقوم انبياء

فأما هؤلاء فأهل مكر

واما الاولون فأغبياء

اذا كان التقى بلهاً وعياً

فأعيار المذلة اتقياء

لو كنت يعقوب طير كنت ارشد في

مسعاك من امم تنمى ليعقوبا

ضلوا بعجل مصوغ من شنوفهم

فاستنكروا مسمعاً للشنف متقوبا

ولن يقوم مسيح يجمعون له

وخلت واعدهم م الخلف عرقوبا

ويقول :

ومَوّه الناس حتى ظن جاهلهم

ان النبوة تمويه وتدليس

جاءت من الفلك العلوي حادثة

فيها استوى جبناء القوم والليس

ويقول :

و « العقل » يعجب والشرائع كلها

خبر يقلد لم يقسه قائس

متمجسون ومسلمون ومعشر

متنصرون وهائدون رسائس

وبيوت نيران تزار تعبداً

ومساجد معمورة وكنائس

والصابئون ينظمون كواكباً

وطباع كل في الشرور حبائس

انى ينال اخو الديانة سؤدداً

ومآرب الرجل الشريف خسائس

واذا الرئاسة لم تصن بسياسة

« عقلية » خطىء الصواب السائس

فهز الحاكم رأسه استحساناً للبيت الاخير فقال الداعي :

قالت معاشر لم يبعث الهكم

الى البرية عيساها ولا موسى

وانما جعلوا للقوم مأكلة

وصيروا لجميع الناس ناموسا

ولو قدرت لعاقبت الذين طغوا

حتى يعود حليف الغي مرموسا

فتمتم الحاكم : ونحن لم نقدر . فقال الداعي :

بنت النصارى لمسيح كنائساً

كانت تعيب الفعل من منتابها

ومتى ذكرت محمداً وكتابه

جاءت يهود بجحدها وكتابها

افعلة الاسلام ينكر منكر

والله ربك صاغها واتى بها

ابن الهدى فنرومه بشقة

في اليد ساطية على منتابها

فقال الحاكم : ما هذا اللسان يا اسمعيل ! فقال الداعي : لم افرغ بعد ، وانشد :

ان الشرائع القت بيننا احناً

واورثتنا افانين العداوات

وهل أبيحت نساء الروم عن عرض

للعرب الا بأحكام النبوات

فقال الحاكم : ما اضعفنا غيرهن . فقال اسمعيل :

مسيحية من قبلها موسوية

حكت لك اخباراً بعيداً ثبوتها

وفارس قد شبت لها النار وادعت

لنيرانها ان لا يجوز خبوتها

فما هذه الايام غير نظائر

تساوت بها آحادها وسبوتها

وقال في التقليد:

ضلت يهود وانما توراتها

كذب من العلماء والاحبار

قد اسندوا عن مثلهم ثم اعتلوا

فنموا باسناد الى الجبار

واذا غلبت مناضلاً عن دينه

القى مقالده الى الاخبار

ثم يقول :

وكم من فقيه خابط في ضلالة

وحجته فيها الكتاب المنزل

وقارئكم يرجو بتطريبه الغنى

فأض كما غنى ليكسب زلزل

فما لعذاب فوقكم لا يعمكم

وما بال ارض تحتكم لا تزلزل

وقال :

توافقت اليهود مع النصارى

على قتل المسيح بلا خلاف

وما اصطلحوا على ترك الدنايا

بل اصطلحوا على شرب السلاف

وقال :

امور تستخف بها حلوم

وما يدري الفتى لمن الثبور

كتاب محمد وكتاب موسى

وانجيل ابن مريم والزبور

نهت امماً فما قبلت وبارت

نصيحتها فكل القوم بور

ويقول في هذا اخيراً ، وله اقوال كثيرة في هذا الباب غير هذه لا متسع لذكرها :

ناديت حتى بدا في المنطق الصحل

تخالف الناس والاغراض والملل

رجوا اماماً بحق ان يقوم لهم

هيهات لا بل حلول ثم مرتحل

واجرؤ يا مولانا وقد رأيت الرضى في وجهك الرباني ان اسمعك قوله في الحكام :

ملّ المقام فكم اعاشر امة

امرت بغير صلاحها امراؤها

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها

وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

فهتف الحاكم : لقد صدق ، ولهذا نقتل بعضهم ونحبس بعضاً .

فقال الداعي : ويقول فينا ، نحن الدعاة ، ويزعم انه لا يخفى عليك ذلك . وسجد وقال : ومعاذ الله ان يخفى على نوركم شيء :

علم « الامام » ولا اقول بظنة
ان « الدعاة » بسعيها تتكسب

فقال الحاكم : لا فض فوه .

فقال الداعي : وسوف تقول يا مولانا ، هذا نفيرنا في الشام يؤلب الناس تحت لواء دعوتنا متى سمعت قوله :

ارى عالماً يرجون عفو مليكهم
بتقبيل ركن واتخاذ صليب

فغفرانك اللهم ، هل انا طارح
بمكة في وفد ثياب سليبي

ويقول :

ما الركن في قول ناس لست اذكرهم
الا بقية اوثان وانصاب

اما الصلاة فاسمع قوله فيها :

يقولون هلا تشهد « الجمع » التي
رجونا بها عفواً من الله او قربا

وهل لي خير في الحضور وانما

ازاحم من اخيارهم ابلا جربا

فاضطرب الحاكم اذ تذكر انه الغى الصلاة ومنع الحج..
ونفخ في البوق ايذاناً بالطواف ، فخرج الحاكم وهو يقول
للداعي اسمعيل : تعود الي في مثل هذه الساعة غداً ، واما شيخك
فيزور القاهرة اما راغباً واما راهباً .

الليلة الثانية

وجاء الداعي اسمعيل في الموعد المضروب فألفى الحاكم متهيئا للسماع فقال : ويقول في الدين والنفس :

يا ظالماً عقد اليدين مصلياً
من دون ظلمك يعقد الزنار
اتظن انك للمحاسن كاسب
وخبيء امرك شرة وشنار
ومع الفتى من نفسه نبية
ما زال يحلف انها دينار
توهمت يا مغرور ، انك دين
علي يمين الله ما لك دين
تسير الى البيت الحرام تنسكاً

ويشكوك جار بائس وخدين

ويقول :

سبّح وصلّ وطف بمكة زائراً

سبعين لا سبعاً فلست بناسك

جهل الديانة من اذا عرضت له

اطماعه لم يلف بالمتماسك

ويقول :

الدين انصافك الاقوام كلهم

واي دين لآبي الحق ان وجبا

والمرء يعييه قود النفس مصحبة

للخير ، وهو يقود العسكر اللجبا

ففارق الحاكم شيء من ابهته ووقاره وهتف : ويلي عليك وويلي منك يا نفسي ! وماذا يقول في الجسم ؟

وانما الجسم ترب خير حالته

سقيا الغمائم فاستسقوا له السحبا

جسمي اودى مر السنين بـه

فلتطلب النفس منزلا بدله

قلمت ظفري تارات وما جسدي

الا كذاك متى ما فارق الروحا

ويصبح الجسم بعد الروح منتبذاً

صفراً كنبذك مكسور البواقيل

يا نفس جسمك سربال له خطر

وما يبدّل في حال بسربال

قد اخلقته الليالي فاتركيه لقى

فما يزينك لبس المخلق البالي

فان خرجت الى بؤسى فواحرجي

وان نقلت الى نعمى فطوبى لي

وكان الحاكم يسمع وهو محتار فقال اسمعيل : وسيسمع مولانا اوضح :

وان صدئت ارواحنا في جسومنا

فيوشك يوماً ان يعاودها الصقل

والله ينقل من شاء

رتبة بعد رتبه

وقد املى علي قصيدة طويلة على التناء في المرأة كأنه استمدها من « السجل المكروم » فألتمس من مولانا ان يشرفها بالمطالعة في خلوته ، وقد قال لي : مولانا الحاكم ، سلمه الله ،

عرف جرثومة الشر فسد على الحية باب الجحر ، اطال الله مدته . واخذ الحاكم القصيدة وكأنه غير منتبه ، وتحركت شفتاه ولم يعلم احد ماذا قال . . . ثم التفت الى الداعي وقال : الم يقل غير هذه القصيدة ؟

– بلى يا مولانا ، هو عدو المرأة الالد . فطابت نفس الحاكم للحديث فقال : اسمعنا . فقال اسمعيل :

لا تتبعن الغانيات مماشياً
ان الغواني جمة تبعاتها
واحذر مقال الناس انك بينها
سرحان ضأن حين غاب رعاتها
ودع القراءة ان ظننت جهيرها
ذكرت به الحاجات مستمعاتها
فالصوت هدر الفحل تؤنس ركزه
الآفه فتجيب ممتنعاتها
اذا بلغ الوليد لديك عشرا
فلا يدخل على الحرم الوليد
فان خالفتني وعصيت امري
فانت وان رزقت حجى بليد

ومن جمع الضرات يطلب لذة

فقد بات في الاضرار غير سديد

وان يلتمس اخرى جديداً لحاجة

فلا يـأمن منـها ابتغاء جديد

ويقول يا مولانا في المرآة والحمام :

نصحتك اجسام الـبرية اجنـاس

وخير من الاعراس بوس وعرناس

ولا تلجي الحمام قد جاء ناصح

بتحريمه من قبل ان يفسد الناس

فكيف به لما اغتدى في طريقه

رجيب وحواش وتبع واشناس .

تخافين شيطاناً من الجن مارداً

وعندك شيطان من الانس خناس

ووافقت الابيات هوى الحاكم لانه منع كل هـذا ، ولحظ ذلك اسمعيل فقال :

تزوج بعد واحدة ثلاثاً

وقـال لزوجـه يكفيـك ربعي

فيرضيها اذا قنعت بقوت

ويزجها اذا مالت لتبع

ومن جمع اثنتين لما توخى

سبيل الحق في خمس وربع

وعقلك يا اخا السبعين واه

كأنك في ملاعبك ابن سبع

ظلمت وكلنا جانٍ ظلوم

وطبعك في الخيانة مثل طبعي

فتذكر الحاكم كلمة جده « واحدة تكفيكم » وقال : يا سبحان الله ! فقال اسمعيل :

لا تجلسن حرة موفقة

مع ابن زوج لها ولا ختن

فذاك خير لها واسلم

للانسان ان الفتى مع الفتن

ويقول :

هل قبلت من ناصح امة

تغدو الى الفصح بصلبانها

كنائس يجمعها وصلة

بين غوانيها وشبانها

ما بالها عذراء او ثيباً
كوردة الجاني باوانها
راحت الى القس بتقريبها
وبيتها اولى بقربانها
قد جربت من فعله سيئاً
والطيب جار بجربانها
وربها تسخط بل زوجها
الـآنس في طاعة ربانها
وزارت الدير واثوابها
ضامنة فتنة رهبانها

وقال الداعي : اما الخمرة يا مولانا ، فهو الد اعدائها وعلى دين مولانا في كرهها وتحريمها ، هو على دينك في كل مذاهبه ، هو حواريك .

فابتسم مولانا هذه المرة ولم يتعض بل قال للداعي : كذا تقول ؟

فاجابه الداعي : نعم يا مولانا ، نعم . واذا شئت فأسمعك ما يقول فيها :

البابلية باب كل بلية

فتوقين هجوم ذاك الباب

واذا تأملت الحوادث الفيت

صهب الدنان اعادي الالباب

قل للمدامة وهي ضد للنهى

تنضو لها ابداً سيوف محارب

لو كان لم يحظرك غير اذية

شيء لبت مباحة للشارب

لكن حماك العقل وهو مؤمر

فاناي وراءك في التراب التارب

ويقول :

هي الراح اهل لطول الهجاء

وان خصها معشر بالمدح

قبيح بمن عند بعض البحار

تغريقه نفسه في قدح

ويقول :

اياتي اني بجعل الخمر طلقة

فتحمل ثقلا من همومي واحزاني

فقطب الحاكم عند سماعه هذا البيت ، اما اسمعيل فاتم :

وهيهات لو حلّت لما كنت شاربا

محففة في الحلم كفة ميزاني

ونفخ في البوق ايذاناً بالطواف ، فانصرف الحاكم مسروراً جداً وقال لاسمعيل : تعود غداً ايضاً . فانصرف اسمعيل من الحضرة وهو ظان انه صرف الحاكم عن استدعاء ابي العلاء .

الليلة الأخيرة

وفي الليلة السابعة والعشرين من شوال سنة ٤١١ كان الداعي اسمعيل منتصباً لدن الحاكم بأمر الله ، ومولانا الحاكم مضطرب كئيب . وكان سكوت وكان كلام فقال الداعي : ويقول في البعث والحساب :

قالوا جهنم قلت ان شرارها
ولهيبها يصلاهما المتشرر
لا تحزن يكنه دينك معشراً
شطراً وان تفعل فأنت مغرر

ويقول في البعث اقوالا ذات باطن وظاهر وهذا اسلوبه في بث افكاره :

لو هب هداد قوم في الثرى سكنوا

لضاقت المدن والبيد الاماليس

ويقول :

لو صح ما قال رسطاليس من قدم

وهبّ من مات لم يجمعهم الفلك

ويقول :

لو قام اموات « العواصم » وحدها

اعيا المحل على المقيم الساكن

لغدوا وقد ملأ البسيطة بعضهم

ورأيت اكثرهم بغير اماكن

ويقول :

وأعجب ما تخشاه دعوة هاتف

اتيتم فهبوا يا نيام الى الحشر

فيا ليتنا عشنا حياة بلا ردى

يد الدهر او متنا مماتاً بلا نشر

ويقول :

وقيل لا بعث يرجى للثواب وما

سمعت من ذاك دعوى مبطل هزلا

وكيف للجسم ان يدعى الى رغد

من بعد ما زمّ في الغبراء او لزلا

وهل يقوم لحمل العبء من جدث

ظهر وايسر لما لاقاه ان جزلا

ويقول :

اذا حان يومي فلا وسد بموضع

من الارض لم يحفر به احد قبرا

فيا ليتني لا اشهد الحشر فيهم

اذا بعثوا شعثاً رؤوسهم غبرا

ويقول :

قال المنجم والطبيب كلاهما

لا تبعث الاموات قلت اليكما

ان صح قولكما فلست بخاسر

او صح قولي فالخسار عليكما

ويقول في هذا اخيراً ، وألفت نظر مولانا الى ما فيه :

ان كنت صاحب جنة في ربوة

فوق ان يتنابها اعصار

لم أسمعك يا مولانا ، الا نتفاً من قصائد ، ولو اردت ان اتلو على مسامعك العلوية كل ما نقلت عن الشيخ لانقضى الليل ،

ولكن لا بد من اطلاعك على بعض ما يقول في التحول :

اثبت لي خالقاً حكيماً
ولست من معشر نفاة

خبطت في حندس مقيم
واعجزت علتي شفاتي

فمن تراب الى تراب
ومن سفاة الى سفاة

ويقول :

الغيب مجهول يحار دليله
واللب يأمر اهله ان يتّقوا

لا تظلموا الموتى وان طال المدى
اني اخاف عليكم ان تلتقوا

اما مذهبنا فاسمع ماذا يقول فيه ، وكيف يدعو اليه :

و«الخير» افضل ما اعتقدت فلا تكن
هملاً ، وصلّ بقبلة او زمزم

فصاح الحاكم : حيّ على خير العمل ، بارك الله فيه . هو منا ، هو من « اهل الخير » .

فقال الداعي : ويقول ايضاً ملمّحاً الى دعوتنا :

بني زمني هل تعلمون سرائراً
علمت ولكني بها غير بائح
متى ما كشفتم عن حقائق دينكم
تكشفتم عن مخزيات الفضائح

فهتف الحاكم : صانه الله ، ولا كشف له ستراً .
فقال اسمعيل : واليك قولاً لا التباس فيه :

دعا موسى فزال ، وقام عيسى
وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يجيء دين غير هذا
واودى الناس بين غد وأمس
فمن لي ان يعود الدين غضاً
فينقع من تنسك بعد خمس

فأبرقت عينا الحاكم حين سمع البيت الاخير . وأدرك اسمعيل في تلك اللحظة شيئاً لم يكن يدركه من قبل . فصاح الحاكم : هيه يا اسمعيل ! فتماسك الداعي بعد تزعزع وقال :

ومهما كان في دنياك هذي
فما تخليك من قمر وشمس
اذا قلت المحال رفعت صوتي

وان قلت الصحيح أطلت همسي

فهتف الحاكم : لا بد من مجيئه الينا رضي ام أبى .

فانحنى اسمعيل متضرعاً : رحماك مولانا ، دعه في وحدته ينشر تعاليمكم ، فهو هناك انفع لنا منه هنا . ماذا يستفيد شيخ مثله من « دار الحكمة » وهو الذي يقول في العقل :

فشاور العقل واترك غيره هدراً
فالعقل خير مشير ضمه النادي

عليك العقل وافعل ما رآه
فان العقل مشتار الشوار

ولا تقبل من التوراة حكماً
فان الحق عنها في توار

الناس مختلفون ، قيل المرء لا
يجزى على عمل وقيل يجازى

والله حقّ في تدبّر امره
عرف اليقين وآنس الاعجازا

فاسأل حجاك اذا اردت هداية
واحبس لسانك ان يقول مجازا

سأتبع من يدعو الى الخير جاهداً

وأرحل عنها ما امامي سوى عقلي .

واشعر ان العقل يصحب تارة

وينفر اخرى وهو غير مليم

وقال أناس ليس عيسى مقرّباً

فقيل ولا موساكم بكليم

ويقول :

تستروا بأمور في دياناتهم

وانما دينهم دين الزناديق

تكذّب العقل في تصديق كاذبهم

والعقل أولى باكرام وتصديق

واخيراً ينضو كل لبس ويقف على قمّة « الدعوة » ويهتف بالناس :

ايها الغرّ ان خصصت بعقل

فاسألنه فكل عقل نبيّ

وظن اسمعيل انه أوتي فصل الخطاب فالتفت الى الحاكم ولسان حاله كأنه يقول : وبعد هذا ماذا ؟ فاذا بالحاكم يقول : لا بد من حضوره ، ارجع اليه يا اسمعيل ، وقل له : الحاكم بأمر الله يريد ان يفضي اليك بسر الاسرار ،

فبدار بدار ... « المهلة » تكاد تنتهي . آه من « النجم المشؤوم » اذا طلع !

لم يدرك اسمعيل ماذا عنى الحاكم بـ « النجم المشؤوم » فقال : تسمح لي يا مولانا ان اتلو عليك ثلاثة ابيات تثبت لك ان الرجل منا وفينا ، وانه يعرف اسرار « دار الحكمة » جميعها ؟ اسمع كيف يخاطبنا وبأي رفق ، بينا هو ينازل غيرنا بحججه وبراهينه .

فوضع الحاكم يده خلف اذنه ، فقال اسمعيل :

نبذتم الاديان من خلفكم
وليس في « الحكمة » ان تنبذا
لا قاضي المصر اطعتم ولا
الحبر ولا القس ولا الموبذا
ان ذكرت ملتكم عندهم
قال جميع القوم لا حبذا

فقال الحاكم : قد امرت باعداد بريد خاص يحملك غداً الى معرة النعمان ، فاستعد .

فمشى الداعي اسمعيل التميمي القهقرى حتى خرج من الحضرة . نوى في تلك اللحظة ان يتوارى في بلاد الشام الى ان يقضي

الله أمراً كان مفعولا .

ونفخ في البوق فركب الحاكم حماره « القمر » وخرج كعادته ، وانتهى به الطواف الى خلوته في المقطم فطلع « للنجم المشؤوم » ولم يعد الحاكم .


بعد العاصفة

الحصن الذى لم يسكت

« غاب » الحاكم ولم يعد فكثر الارجاف ، وكل ما عرف من امر « غيبته » حتى الساعة : انه قام بطوافه الليلي ليلة الاثنين في ٢٧ شوال سنة ٤١١ هجرية ، بعد ان ذكر لوالدته انه يتوقع في الغد قطعاً في طالعه ينذر به ظهور نجم معين وانه يتوجس خيفة من ظهوره ، ويخشى ان يصيبها شر ولاسيما من اخته — ست الملك . واعطى امه مفاتيح خزانة مليئة بالمال لتحولها الى قصرها ، فجزعت امه ، وتضرعت اليه الا يخرج ، فوعدها بذلك ، ولبث ارقاً والضجر يكاد يقتله حتى مضى من الليل ثلثاه . وعندئذ قال لامه : لا بد من ركوبي الليلة والا خرجت روحي . ثم ركب وخرج .

وخرج القضاة والاشراف والقواد في اليوم التالي الى الجبل

فبحثوا عنه حتى آخر النهار ولم يعثروا له على اثر ، وظلوا يخرجون كل يوم حتى كان يوم « الخميس » آخر شوال فعثروا على حمار الحاكم الاشهب ، المسمى القمر ، وقد قطعت ساقاه الاماميتان ، وعليه سرجه ولجامه ، واذا اثر رجل خلف الحمار واثر رجل امامه ، فاقتفوا الاثر فعثروا على ثياب الحاكم وهي سبع جبب لم تحل ازرارها . وكثر اللغو اذ طالت الغيبة فجلس الظاهر لاعزاز دين الله على كرسي الخلافة يوم عيد الاضحى سنة ٤١١ اي بعد غياب ابيه بستة اسابيع .

وشاعت شائعات تترى عن ظهور الحاكم هنا وهناك ، وعاش الناس حقبة يرجّفون ويلغون منتظرين الرجعة حتى ظهر رجل يشبهه في عهد المستنصر سنة ٤٣٤ فادعى انه هو الحاكم وانه بعث بعد موته فاوقع الجند بالمدعي وشتتوا انصاره ، وفي هذا قال ابو العلاء :

مضى قبل مصر الى ربه

وخلى السياسة للخائل

وقالوا « يعود » فقلنا يجوز

بقدرة خالقنا الآئل

اذا هب زيد الى طيّء

وقـام كليب الى وائل

واضطهد الظاهر لاعزاز دين الله دعاة ابيه اشد الاضطهاد فقتل منهم وصلب وسجن حتى رووا انهم كانوا يقطعون رأس احد هؤلاء الدعاة ويعلقونه على صدر اخته او زوجته . فتفرق الدعاة تحت كل كوكب ولم يرتدّ منهم الا القليل . ظلوا يناضلون سراً ولجأ اكثرهم الى لبنان وسوريا الشمالية فتواروا عن العيون وبثوا دعوتهم ثم اقفل الباب . وفي سنة ٤١٤ اذاع الظـاهر لاعزاز دين [illegible] وثيقة رسمية هاك ما جاء فيها نقلاً عن كتاب الحاكم بامر الله لعنان :

« وذهبت طائفة من النصيرية الى الغلو في ابينا امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، رضوان الله عليه ، غلت وادعت فيه ما ادعت النصارى في المسيح ، ونجمت عن هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول ، ضالة بجهلها عن سواء السبيل ، فغلوا فينـا غلواً كبيراً ، وقالوا في آبائنـا واجدادنا منكراً من القول وزوراً ، ونسبونا بغلوهم الاشنع ، وجهلهم المستفظع ، الى ما لا يليق بنا ذكره . وانّا لنبرأ الى الله تعـالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلاّل ، ونسأل الله ان يحسن معونتنـا على اعزاز دينه ، وتوطيد قواعده وتمكينه ، والعمل بما امرنا به جدنا

المصطفى وابونا علي المرتضى ، واسلافنا البررة اعلام الهدى .
وقد علمتم يا معاشر اوليائنا ودعاتنا ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفسّاق والفجرة المرّاق وتفريقنا لهم في البلاد كل مفرّق ، فظعنوا في الآفاق هاربين ، وشردوا مطرودين خائفين . »
ثم اعترف الظاهر الى الله « بانه واسلافه الماضين واخلافه الباقين مخلوقون اقتداراً ، ومربوبون اقتساراً لا يملكون لانفسهم موتاً ولا حياة ، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى ، وان جميع من خرج منهم عن حد العبودية والامانة لله عز وجل فعليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . وانه قد قدم انذاره لهم بالتوبة الى الله تعالى من كفرهم ، فمن اصر فسيف الحق يستأصله . »

اسكتت قلعة الظاهر لاعزاز دين الله جميع حصون الدعوة لابيه الحاكم بامر الله فاستحالت الصيحة الصاخبة الى همس ونجوى فاصبح حديثها وشوشة في الخلوات . ان القوة لا تعجز عن شيء مثل عجزها عن خنق العقائد ، فانها تكمن كمون النار تحت الرماد . وهذا الذي كان ، فقد هرب جميع الدعاة من القاهرة وانتشروا في الاقطار يسرّون النجوى ، يكتمون سرهم حتى عن الآذان المشنفة كما يقول ابو العلاء :

ولا حل سري قط في اذن سامع

وشفتاه او قرطاه يستمعان

كل الحصون سكتت الا حصن المعرة الجبار فانه ظل يعمل ويعلم ، ويهاجم النصيرية متابعاً الظاهر لاعزاز دين الله ، يؤيد الدعوة الفاطمية الاصيلة ولا يؤمن الا بنبيه « العقل » ولا يعتقد الا بالخير ولا يحرص الا على النفس . هذا هو الثالوث الذي يعني ابا العلاء فهو يترك كل ما عداه هدراً . ظل ابو العلاء يملي ، بل تطور املاؤه فامسى كأنه يقرر مذهباً بعينه ، بعدما كان يعلّم طلابه آراء عامة . كان فيما مضى هداماً وها هو يمسي بنّاء ، يشيد صرح مذهبه علناً ، ولاسيما بعدما سمعت كلمته ووهبه صالح بن مرداس المعرة ، وادى الى « اخوانه » الذين يسميهم تارة المعاشر وحيناً الجماعة وطوراً القوم كما يقتضي الوزن ، اصدق خدمة واجلّها ، فانقذهم من براثن اسد الدولة صالح بن مرداس ، فعاشوا في ظل شيخهم المعري آمنين ، وله عليهم امرة مطاعة ، امرة لا يؤيدها سيف ولا يدعمها رمح ، ولا تحوطها قوة ، امرة قائمة على اسس الدعوة القائمة على العقل والخير والصدق .

كانت امرة ابي العلاء على المعرة كالامارات المثالية التي صبا اليها الفلاسفة فنعم بال الامام وقال في ذلك :

نجّى المعاشر من براثن صالح

رب يفرّج كل امر معضل

ما كان لي فيه جناح بعوضة

الله البسهم جناح تفضل

ولكن الصيت الذي انتشر، وهذا الجاه الطويل العريض، وهذا الخير الذي نتج عن خروج ابي العلاء الى صالح لم يرض ابا العلاء . لقي الامام من صالح احتفاء عظيماً ، فالتاريخ يروي انه قيل لصالح وهو محاصر المعرة : ان باب المدينة قد فتح ، وخرج منه اعمى يقوده انسان . فقال صالح : هو أبو العلاء ، فدعوا القتال لننظر ماذا يريد .

وكان لابي العلاء ما اراد . سلام واطمئنان للمعرة وسيادة للامام ولكنه لم يزه ولم يبطر . الرجل الذي افتدت كلمته نفوساً بريئة وحمى وطنه من القتل والدمار لم يرض عن نفسه فيما بعد . لم يغفر لنفسه خطيئة عرضية لا يتحرج منها الصالحون الابرار وهي كذبة المديح فقال مكفراً موبخاً نفسه التي آلى ان يطهرها وينقيها بنسكه :

تغيبت في منزلي برهة

ستير العيوب فقيد الحسد

فلما مضى العمر الا الاقل
وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح
وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام
واسمع منه زئير الاسد
فلا يعجبني هذا النفاق
فكم نفقت محنة ما كسد

وكأن الشيخ وبخه ضميره لانه دان صالحاً ، ولانه لم ير الصلاح الذي ينشده فيمن وهبه اياهم صالح فقال :

ما لمت في افعاله صالحاً
بل خلته احسن مني ضمير
يا قوم لو كنت اميراً لكم
ذممتم في الغيب ذاك الامير
وانما سائسكم دائب
يرعى المطايا ويسوق الحمير
وردتم « الآجن » من دينكم
وما ظفرتم بالصريح النمير

عـالمكم يضرب في غمـرة
كالعلـج بالقفر يلس" الغمـير
فعر"فـوني بفتـى منـكـم
لا يمـتري الناس ولكن يمير

ان صاحبنا صالح بن مرداس يسميه اخواننا الفاطميون – الدروز – حتى اليوم لا صالح ، لانه اضطهد الاخوان وجنف عليهم .

ثم انقضى عهد الظاهر لاعزاز دين الله العصيب ، وفي هذا العهد لم يسكت حصن المعرة كما قلنا ، وجاء عهد المستنصر فرأى هذا الخليفة ان الدعوة الفاطمية في تقهقر ، فحول وجهه شطر المعرة ، صوب ابي العلاء ، فوهب له ما في خزائن المعرة من مال حلال ، فرفضه الامام ، ونزل له عن خراجها فلم يقبل مال الظلم . ثم التفت المستنصر ناحية اخرى فوجـه ابياتاً مروية الى داعي الدعاة الملقب بالمؤيد في الدين يستنصره :

يا حجة مشهـورة في الورى
وطـود علـم اعجز المرتقي
شيعتنـا قد عدموا رشدهم
في الغرب يا صاح ، وفي المشرق

فانشر لهم ما شئت من علمنا

وكن لهم كالوالد المشفق

ان كنت في « دعوتنا » آخراً

فقد تجاوزت مدى السبق

مثلك لا يوجد فيمن مضى

من سائر الناس ولا من بقي

وان تعجب الناس كيف لم يقتل ابو العلاء على الزندقة فلانهم لا يعلمون ، او لا يريدون ان يعلموا ، انه فاطمي المذهب ، وان للفاطمية النفوذ والسيطرة على وطنه ـ سياسياً ودينياً ـ وان ضعفت احياناً سيطرة الفاطميين السياسية فلم يضعف نفوذهم الديني ، فقد كان اقليم حلب على مذهب « الامامية » .

اما داعي الدعاة الذي مررنا به مرور الكرام فسنعرج عليه ، والموعد قريب .

مذهب ابي العلاء

الفاطمية مذهب فلسفي ، كما علمت ، وقد اصبح ابو العلاء فيما اثبت وقرر في « اللزوميات » شيخها الأعظم وامامها الباقي ، فهو لم يدع شيئاً يعني « المستجيب » الى هذه الدعوة الا ذكره له وفنده ، وهو لا يقرر القضية مرة ومرتين بل يعالجها في كل ابواب كتابه الذي سميناه فيما سبق كتاب المذهب .

ولما كانت الغريزة الجنسية اقوى ما في الانسان بل المخلوقات من غرائز لانها مستودع بقاء النوع ، فقد اكثر ابو العلاء الكلام على المرأة والنسل . ومن طالع سيرة المعز والعزيز والحاكم الفاطميين رأى ابا العلاء لا يخرج في حدود تعاليمه عن تخوم آراء هؤلاء الائمة الثلاثة . ومن اسعده الحظ وقرأ رسالة النساء الكبيرة في كتب الدروز يرى ان النبع واحد . كلهم يريد ان

يقصي المرأة وينحيها خوفاً من الفتنة وغيرة على العرض .

ظن بعضهم ، وانا كنت من هذا البعض ، ان المعري لم يرد ان يتزوج لانه لا يريد ان يجني على احد كما جنى ابوه عليه ، ولكن ليس السبب هناك ، انما هناك سبب آخر وهو مذهب يؤثر العفة ويحدد النسل عند الاضطرار ولا يسمح بتعدد الزوجات ، ويثور للعرض المهصور ثورته للدم المهدور ، ناهيك بأن تقليل النسل تقريب للساعة التي يسود فيها الخير هذه الدنيا .

قال ابو العلاء يتذكر شبابه :

سقيا لايام الشباب
وما حسرت مطيّتيا
ايام آمل ان امسّ
الفرقدين براحتيّا
وافيض احساني على
جاريّ ثمّ وجارتيّا
والآن تعجز همتي
عما ينال بخطوتيّا

اما تركه الزواج فيقول فيه :

انا للضرورة في الحياة مقارن

ما زلت اسبح في البحار الموّج

وصرورة من شيمتين لانني

مذ كنت لم احجج ولم اتزوج

من مذهبي الا اشد بفضة

قدحي ولا اصغي لشرب معوّج

لكن اقضّي « مدتي » بتقنع

يغني وافرح باليسير الاروج

وعلى المرأة ، في مذهبه ، ان تلزم بيتها ، وقد اشرنا الى كثير من اقواله في ذلك ، وتائيته الطويلة توضح منهجه ، فكأنه في تلك القصيدة يكتب سورة النساء ويحدد مواقفها من الحياة ، وهو في مواضع كثيرة من كتابه يوضح اشياء يرى ان يراعيها الاخوان كقوله في زواج ابن الاربعين مثلاً :

اذا ما تقضّى الاربعون فلا ترد

سوى امرأة في الاربعين لها قسم

فان الذي وفّى الثلاثين وارتقى

عليهن عشراً للفناء به وسم

زمان الغواني عصر جسمك زائد

وهنّ عناء بعد ان يقف الجسم

اما تعدد الزوجات فيعارضه ولا يراه صوابا :

اذا كنت ذا ثنتين فاعدل او اتحد

بنفسك فالتوحيد اولى من العدل

وعند اخواننا الدروز كلمة مذهبية هذا نصها : ان المتعفف يحسب في عداد الملائكة الاطهار . وسيأتي التفصيل .

ويرى ان تصان المرأة وتقصى ، وان تفعل غير ذلك فانت المجرم لا هي :

اذا امنت على مال اخا ثقة

فاحذر اخاك ولا تأمن على الحرم

فالطبع في كل جيل طبع ملامة

وليس في الطبع مجبول على الكرم

ويقول ايضاً فيصيب عصفورين بحجر واحد :

ثر على المرأة في حمّامها

ارسالك الفاضل في زمامها

ومشيها تضرب في اكمامها

يفوح ريّا الطيب من امامها

زائرة المسجد في المامها

تأثم والخيبة في ائتمامها

ويتعجب ابو العلاء من رجل يكون عيالاً على زوجته فيقول :

عجبت لكهل قاعد بين نسوة

يقات بما ردت عليه المراهن

يعال على ذم ويزجر عن قلى

كما زجرت بين الجياد الكوادن

ويقول في المنجمين والمرأة :

اما لامير هذا العصر عقل

يقيم عن الطريق ذوي النجوم

فكم قطعوا الطريق على ضعيف

ولم يعفوا النساء من الهجوم

وحيث عرض ذكر المنجمين فلا بأس من جلاء رأيه فيهم :

سألت منجمها عن الطفل الذي

في المهد كم هو عائش من دهره

فاجابها مئة ليربح درهماً

واتى الحمام وليدها في شهره

يعني : يأكل حلاوته وامه تقبره ، كما قال المثل العامي .

ويوصي الرجل الرشيد بالاحتفاظ بزوجته حتى آخر العمر ،

وهذا ما اراه عند اخواننا الدروز :

اذا كانت لك امرأة عجوز
فلا تأخذ بها ابداً كعابا
وان كانت اقل بهاء وجه
فأجدر ان تكون اقل عابا

واعرف منهم من لم يرزق عقباً ولم يطلّق ، وان كان ذلك جائزاً له . وابو العلاء قليل الثقة بالمرأة كثير الشك بحصانتها حتى يمنع دخول الوليد عليها كما مر ، وان كان لا بد من تعليمها فليكن معلمها شيخاً فانياً ، ويغالي فيحذر من القراءة المجوّدة بحضرتها ، فالصوت هدر الفحل كما سبق ، اما ميله الى ترك الزواج وتحديد النسل فهذا يعرفه جميع الناس حتى العوام ويتمثلون به عند الغضب والحرد على المرأة والولد واليك ما زعم :

اذا شئت يوماً وصلة بقرينة
فخير نساء العالمين عقيمها

ويقول :

قد بكرت لا يعوقها سبل
كمهرة الروض في بنات سبل
الى طبيب على الطريق لكي

تأخذ من عنده دواء حبل

كم قذفت عرس بائس بحصى

كل حصاة منها نظير جبل

واكره ما يكره زواج الشيخ العاجز المتصابي :

وعرسه في تعب دائم

لا تخضب الكف ولا تكتحل

ملّت وان احسن ايامه

تقول في النفس متى يرتحل

اما النسل فينصح بالاقلال ان كان لا بد منه :

ان كنت تهدي لي واجزيك مثله

فان الهدايا بيننا تعب الرسل

فدونك شغلاً غير هذا لعله

يعود بنفع لا كشغلك بالنسل

ولا اخالك نسيت رأي الفيلسوف اليوناني في زواج الحكيم ، اما رأيه الاخير في النسل فهو هذا :

دنياك دار كل ساكنها

متوقع سبباً من النقل

والنسل افضل ما فعلت بها

واذا سعيت له فعن عقل

اما اباحة النساء فلا يوافق افلاطون عليها بل يسفهها ويشجبها :

شر النساء مشاعات غدون سدى

كالارض يحملن اولاداً مشاعينا

برئت الى الخلاق من اهل مذهب

يرون من الحق الاباحة للنسل

وقد تكون جرائم اولياء العهد في التاريخ ، وجعل الحاكم ولي عهده عبد الرحيم بن الياس بدلا من ابنه ، كرهت الشيخ بالنسل ولاسيما بعدما رأى الظاهر يفعل ما فعل فقال :

اعدى عدو لابن آدم نفسه

ثم ابنه وافاه يهدم ما بنى

ويلتفت الى المرأة فيقول لها :

احاضنة الغلام ذممت منه

اذاك فأرضعي حنشاً وضمي

اما النفس والجسم فقد أقرأتك ما قال فيها ، وقد اعجبني هذان البيتان فاحب ان تشاركني فيها :

النفس عند فراقها جثمانها

محزونة لدروس ربع عامر

كحمامة صيدت فثنّت جيدها

اسفاً لتنظر حال وكر دامر

امـــا الخير فهو اساس المذهب الفاطمي وقد اشرنا اليه كثيراً ، وابو العلاء يدفعه حب الخير حتى يتناول به الحيوان ، فاسمع كيف يحث على الخير :

قبيح مقال الناس جنـــاه مرة

وكان قليـــلاً خيره لم يعاون

اذا انت لم تعط الفقير فلا يبن

له منك وجه المعرض المتهاون

وكأنه يعرف ما يقوله المثل عندنا : قلها ولا تقطعها . الحسنة القليلة تدفع بلايا كثيرة . فيقول :

اذا طرق المسكين بابك فاحبه

قليلاً ولو مقدار حبة خردل

ولا تحتقر شيئاً تســـاعفه به

فكم من حصاة ايدت ظهر مجدل

ومثلنا يقول ايضاً « بحصة تسند خابية » . ويوصي الامـام بعيادة المرضى والاحسان الى الفقراء منهم :

اذا عـدت في مرض مكثراً

فخفف وخف ان تمل العليلا

وان كان ذا فـاقة مقتراً

فـأسعف وان كان نيلاً قليـلا

ويتناول الانسان والحيوان معاً فيقول :

اسأت بعبـدك في عسفه

وحمّلت عـيرك ما لم يطق

ولا يفوتنك ان تقسيم الثروة في موطن ابي العلاء لا يرضى عنه حتى الساعة ، ويقول في الحيوان :

تسريح كفي برغوثاً ظفرت به

ابرّ من درهم تعطيـه محتاجا

لا فرق بين الاسكّ الجون اطلقه

وجون كندة امسى يعقد التاجا

كلاهمـا يتوقى والحيـاة له

حبيبة ويروم العيش مهتاجـا

ويوغل فيقول :

فاجعـل حـذائي خشباً انني

اريـد ابقـاء على الدارش

وقصيدته الحائية مشهورة وفيها يحرم كل ما الحياة فيه حاضرة او كائنة . ويسخط على امير يبيع جواريه وله في بطونهن ودائع فيقول :

ازال الله خيراً عن امير له ولد على علم يباع
جوار كالنياق يسقن عنه
وفي احشائهن له رباع

اما الصلاة والزكاة فشأنهما عظيم عنده ، وكذلك هما عند اخواننا الدروز ، فالصلاة هي صلة المخلوق بالخالق ، والزكاة عمل الخير فعلاً ، ثم اعطاء المال ، وهاك قول الامام :

اذا صلوا فصلّ وعفّ وابذل
زكاتك واجتنب قالاً وقيلا
ولا ترهف مدى لعبيط نحض
ولا تشهر على قرن صقيلا

ثم يوصي بالصمت لان الكلمة كثيراً ما تكون شعلة شر فيقول :

اوجز الدهر بالمقال الى ان
جعل الصمت غاية الايجاز
اصمت الشهور فهلاً صمتّ

ولا صوم حتى تطيل الصموتا

وما اجمل قوله هذا :

بالصمت يدرك طامر ما ناله

وتخيب منه بعوضة مهذار

اما السلوك في الحياة فقوامه ترك الشر والاعتداء ، ولكنه يوصي بالدفاع الشريف فيقول :

ادفع الشر اذا جاء بشرّ

وتواضع انما انت بشر

هذه الاجسام ترب هامد

فمن الجهل افتخار واشر

ويقول في الكذب ، ودعامة المذهب الصدق :

ان عذب المين بافواهكم

فان صدقي بفمي اعذب

اهوى الحياة وحسبي من معايبها

اني اعيش بتمويه وتدليس

فاكتم حديثك لا يشعر به احد

من رهط جبريل او من حزب ابليس

واخيراً يقول :

اصدق الى ان تظن الصدق مهلكة

وعند ذلك فاقعد كاذباً وثم

وما اخاله يعني الا قولهم : الضرورات تبيح المحظورات . واذا جاز للانسان ان يدافع عن نفسه ، اذا تعرضت للهلاك ، بالنار والحديد افلا يصونها بكذبة ؟ . ولكن الشيخ ما كذب قط حتى في اعصب الساعات ، وما اكثرها في تاريخ حياة الاحرار . وكأنه قد اعيته مداواة البشر فآيس منهم وقال مع اشعيا :

ايكون رفع للشرور فينتهي

عاد ويقنع بالنبات الضيغم

اما الحلال والحرام فللشيخ فيهما رأي لا يحيد عنه متنزهة الدروز ابداً ولو جر الى الهلاك . قال الشيخ :

لا تأنفن من احترافك طالباً

حلاً وعدّ مكاسب الفجار

ويقول في مال الظالمين وهذا سنقول فيه كلاماً :

متى ما تصب يوماً طعاماً لظالم

فقم عنه ، واقفر بعده ثم قالس

ويرى ان كل ما في الكون يسبّح الله ولا يمن ، او لا

يطلب اجراً ، الا الانسان فيخاطبه قائلاً :

كل يسبح فافهم التقديس في

صوت الغراب وفي صياح الجدجد

ثم يقول في الانسان ، هذا المخلوق المتغطرس المتكبر الذي يظن ان الكون خلق لخدمته كما قال النبي داود في المزمور الثامن : بالمجد والكرامة كللته وعلى اعمال يديك سلطته . اما ابو العلاء فيرى غير ذلك ويقول :

فلك يدور بحكمة

وله بلا ريب مدير

ان منّ مالكنا بما

نهوى فمالكنا قدير

او لا فعالم آدم

باهانة المولى جدير

ثم يشتد غضب الشيخ في مكان آخر فينكر « الغائية » التي يزعمها البشر فيقول :

تورعوا يا بني حواء عن كذب

فما لكم عند رب صاغكم خطر

لم تجذبوا لقبيح من فعالكم

ولم يجئكم لحسن التوبة المطر

ويقول في الخمرة التي يناهضها «عقال» الدروز في زماننا، بل ذهبوا ابعد مما ذهب اليه المعري فتورعوا عن التدخين وما يشبهه :

لو كانت الخمر حلاً ما سمحت بها

يوماً لنفسي لا سراً ولا علنا

فليغفر الله كم تطغى مآربنا

وربنا قد احل الطيبات لنا

ومن مذهبه طرد كل خرافة من اذهان الاخوان فيقول في الجن واشباه الجن :

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به

حساً يحسّ لجني ولا ملك

ويقول :

فاخش المليك ولا توجد على رهب

ان انت بالجن في الظلماء خشيتا

فانما تلك اخبار ملفقة

لخدعة الغافل الحوشي حوشيتا

اما اليمين فينهى عنها في كل حال :

لا تحلفن على صدق ولا كذب

فما يفيدك الا المأثم الحلف

وهو يرى ان الناس لا يتدينون الا خوفاً فيقول :

والناس يطغون في دنياهم اشراً

لولا المخافة ما زكوا وما سجدوا

حتى يخاطب السيف بسخره المعهود فيقول :

خير وشر وليل بعده وضحى

والناس في الدهر مثل الدهر قسمان

واللب حارب تركيباً يجاهده

فالعقل والطبع حتى الموت خصمان

هل ألحد السيف او قلّت ديانته

او كان صاحب توحيد وايمان

ورابني منه ترك الجاحدين سدى

لم يفجعوا برؤوس منذ ازمان

اما نحن فنشكر إلحاد السيف في زمن الشيخ فسلم لنا . . .

اما الدين عنده وقد سبق الكلام عنه فهو :

الدين هجر الفتى اللذات عن يسر

في صحة واقتدار منه ما عمرا

ورحم الله عمي الذي كان يقول : توبة المريض مريضة . اما اخلاق الامام الخاصة فيعرفنا بها بقوله :

وتؤثر حالة الزّميت نفسي

واكره شيمة الرجل المفنّ

ثم يرد على الذين يزعمون ان النجوم عاقلة ، وقد سبقت كلمة حول هذه الفكرة ، فيتهكم ويتساءل : ان كانت اديانهم مختلفة مثل اديانانا ، حتى ينتهي الى رأيه في النسل فيقول :

ان شئت ان تكفى الحمام فلا تعش

هذي الحياة الى المنية سلّم

اما كرهه الدنيا فمعروف مشهور ، ومع كل ذلك يصدق فيعلن انه راحل عنها كارهاً لانه استطاب البقاء على علاّته ، وحسبه انه يتزود منها ما يلي :

خاب الذي سار عن دنياه مرتحلا

وليس في كفه من دينه طرف

لا خير للمرء الا خير آخرة

يبقى عليه فذاك العز والشرف

ثم يرى كما رأى ابن سينا : وكل الشك في امر الخروج . ولكنه يجعل هذا الشك حقيقة ملموسة فيقول :

اما الحقيقة فهي اني ذاهب

والله يعلم بالذي انا باق

واظنني من بعد لست بذاكر

ما كان من يسر ومن املاق

يا مرحباً بالموت من متنظر

ان كان ثم تعارف وتلاق

ولذلك فخير ما يعمل الانسان هو تطهير نفسه ليكون احسن حالا فيقول :

ومن يطهر بخوف الله مهجته

فذاك انسان قوم يشبه الملكا

ويضحك ممن يوصي عند الموت فيقول بلهجته المعهودة :

يوصي الفتى عند الحمام كأنه

يمر فيقضي حاجة ويعود

وما دامت الحياة شقاء فالشيخ يتمنى قصر العمر — لا اظن :

وددت ان الهي كان غادرني

و « مدتي » في يديه اقصر المدد

وهذه « المدة » من كلام الاخوان اليوم ، وكذلك المهلة وقد

سمعت قولهم ، ان كنت ممن عاشرهم : دامت مهلتك . اما الملوك فشعاره اخيراً فيهم كما قال السيد المسيح : اعطوا ما لقيصر لقيصر :

واخش الملوك وياسرها بطاعتها
فالملك للارض مثل الماطر الثاني

ان يظلموا فلهم نفع يعاش به
وكم حموك بوجل او بفرسان

اما الصلاة فليس لها عنده مكان خاص بل يقول فيها :

متى يقوم امام يستفيد انا
فتعرف العدل اجبال وغيطان

صلوا بحيث اردتم فالبلاد اذن
كأنما كلها للابل اعطان

ويقول :

القدس لم يفرض عليك مزاره
فاسجد لربك في الحياة مقدسا

متى يخلص التقوى الى الله لا تغض
عطاياه من صلى وقبلته الشرق

والاتكال على الله هو كل شيء في نظر الشيخ ، فالله كريم

يعطي بلا حساب :

لا تخبأن لغد رزقاً وبعد غد

فكل يوم يوافي رزقه معه

وادخر جميلا لادنى القوت تدركه

والقيامة تعرف ذاك اجمعه

فرق تلادك فيما شئت محتقراً

فليس يذرف خلف النعش ادمعه

وافعل بغيرك ما تهواه يفعله

واسمع الناس ما تختار مسمعه

ويقول ايضاً قولاً جميلا وقد احسن الاداء :

واطلب الرزق بالمرور من الشجـ

ـراء لا من اسنّة ومناصل

وتشبه بالطير تغدو خماصا

وتعد اليسار ملء الحواصل

واراني لست في حاجة الى لفت نظرك ان كنت ممن قرأوا الانجيل . ويقول في اساليب الحياة :

ويعجبني دأب الذين ترهبوا

سوى اكلهم كد النفوس الشحائح

واطيب منهم مطعماً في حياتهم

سعاة حلال بين غاد ورائح

فما حبس النفس المسيح تعبداً

ولكن مشى في الارض مشية سائح

ويقول في صلاة المعيول :

صلاة الامير الكاسي بمسجد

ابرّ واوفى من صلاة البطارق

اما النواميس التي تعقّد القضايا وتخلق المشاكل فيقول فيها :

تمس منا للديانة معشر

وقد بطلت عند اللبيب النوامس

ويقول في الفقهاء شراح النواميس :

اجاز الشافعي فعال شيء

وقال ابو حنيفة لا يجوز

فضلّ الشيب والشبان منا

وما اهتدت الفتاة ولا العجوز

ولم آمن على الفقهاء حبساً

اذا ما قيل للفقهاء جوزوا

ثم ينسب هذا التفريق الى طباع البشر فيقول :

لولا عداوة اصل في طباعهم
كانت مساجد مقروناً بها البيع

واخيراً يعدّي عن كل هذا فيقول :

اذا الانسان كفّ الشر عني
فسقيا في البلاد له ورعيا
ويدرس ان اراد كتاب موسى
ويضمر ان احب ولاء شعيا

والشيخ لا يترك شيئاً الا ويحدث الاخوان عنه ، فها هو يحرم البكاء على الميت لان الموت انتقال وراحة وتغير منزل و « القضية ثابتة » كما يقول افلاطون ، فيقول وسترى ايضا قولاً مثل هذا قبل ان يفارق :

بكى جزعاً لميته كفور
فجاء بمنتهى الرأي الافين
مصيبة دينه لو كان يدري
اجلّ من المصيبة بالدفين

وهو يزعم انه لا يخشى الموت ، مع اني رأيته خائفا جداً مع ايمانه بعقيدته الثابتة :

ولست كموسى اهاب الحمام

ولكن اود لقـاء الملك

ويعرض له الشك في الله ، ولكن شكه هذا ابن عم الايمان فيقول :

اما الاله فامر لست مدركه

فاحذر لجيلك فوق الارض اسخاطا

هبه اغوسطينوس او توما الاكويني فقد اعتورهما مثل هذا وكما يعتور اكبر النساك والحبساء .

ها هو الشيخ يقترب من هوة الابدية فاسمـع ما يقول وكيف يعلن امامته ، ويبوح بالسر الذي اتعبه واتعب الناس به ، وحمل داعي الدعاة على تحبير تلك الرسائل :

لو اتبعوني ويحهم لهـديتهم

الى الحق او نهج لذاك مقارب

فما للفـتى الا انفراد ووحـدة

اذا هو لم يرزق بلوغ المآرب

وكأن الامام قد شعر بدنو الرحيل فقال :

انافق في الحياة كفعل غـيري

وكل النـاس شأنهم النفـاق

اعلل مهجـتي ويصبح دهري

الا تغـدو فقـد ذهب الرفاق

ثم يوصينا بقراءة كتابه هذا ، وقد فعلنا ذلك مرات :

اقرأ كتابي اذا ضم الثرى جسدي

فانـه لك ممـن قاله خلف

صدقت ايهـا الامام . ويوصي الاخوان باتباع خطتـه ، وقد فعلوا ايضاً :

ان مات صاحبكم فجدّوا بعده

في النسك واتخذوا الخشوع جليسا

وأشهد وشهادتي حق هي ، لاني اعيش وعشت بينهم قرابة ربع قرن ، ان « اجاويدهم » لا يقصرون عن شيخهم ابي العلاء ، ان لم يكن بعض « المتنزهة » منهم قد تجاوزوه . وها هو الشيخ يعلن مذهبه الذي كتمه عنا طول العمر فيقول اولاً :

وان تسألوا عن مذهبي فهو خشية

من الله لا طوقاً ابث ولا جبرا

ويقول ايضاً :

اذا قومنا لم يعبدوا الله وحده

بنصح فانّا منهم برآء

وهو لم يخف هذا التوحيد المجرد عن كل شيء في منتصف العمر فقال :

بوحدانية العلام « دنّا »

فدعني اقطع الايام وحدي

وها هو يعلن ذلك السر المكتوم فيقول :

طوى عنك سراً صاحب قبل شيبه

فلما انجلى عنه المشيب جلاه

ولا ملك الا للذي عز وجهه

ودامت على مر الزمان علاه

ويقول ايضاً :

اذا سألوا عن مذهبي فهو بيّن

فهل انا الا مثل غيري ابلهُ

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها

اجدّ كما جدوا والهو كما لهوا

واشهد اني بالقضاء حللتها

وارحل عنها خائفاً اتأله

ويدنو الموت منه فيحس به الشيخ فيصف انا حاله :

قد خفّ جرمي وصار جرمي

اثقل من هضبة عليّا

نفسي اولى بمن عناها

من هؤلاء وهؤليّا

ويخشى ان يناح عليه ، ومن له لينوح عليه ، فيقول معلماً الاخوان :

قبيح ان يحس نحيب باك

اذا حان الردى فقضيت نحبي

فاوصيكم بدنيانا هواناً

فاني تابع آثار صحبي

ثم يختم كتاب حياته ومذهبه بهذين البيتين :

ازول وليس في الخلاق شك

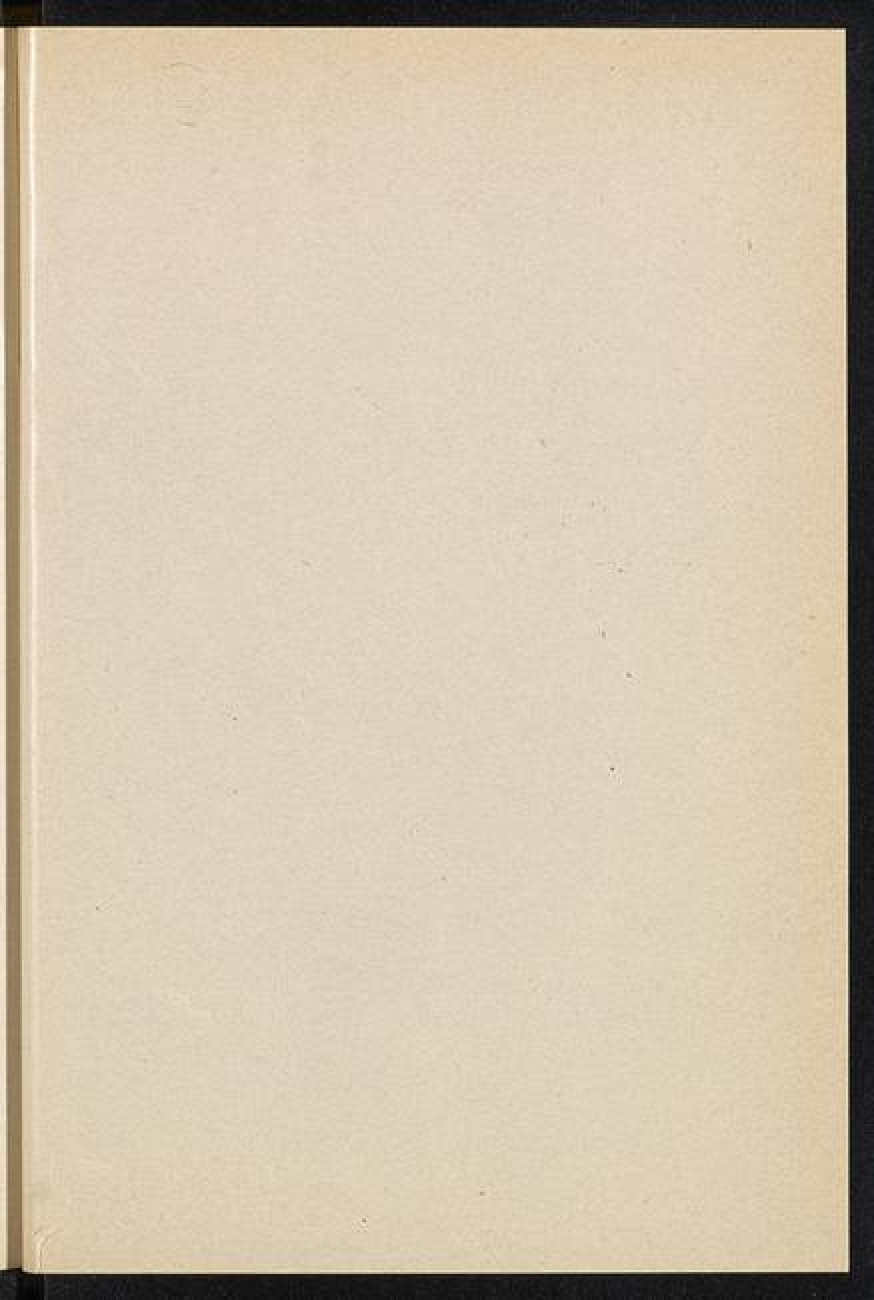
فلا تبكوا علي ولا تبكّوا

خذوا سيري فهن لكم صلاح

وصلوا في حياتكم وزكّوا

لا ادري ايها القارىء ، وقد فرغت من الكلام على رأيي في مذهب ابي العلاء ، ان كنت صرت لي حزباً . فان كنت لا توافقني فانا مستعد ان اتبعك ان جئت برأي يستظهر على زعمي ، وسوف انتقل الى المواطن التي يتفق فيها

ابو العلاء مع فاطمي اليوم ، وسيكون سبيلنا الى ذلك اثبات وقائع لا استشهاد في الشعر فقد فرغنا من هذا ، وما ذكرنا ما ذكرناه لك الا لنطبق اعمال الجماعة على اقوال الامام فترى انهم اخوان يتبعون منهجاً واحداً ، لا يختلف الا في قضية واحدة لا مجال لذكرها . وان كان هناك بعض اختلاف ، واعتقد انه غير موجود ، فعند الدروز كلمة تشير الى التطور الذي لا بد منه ، وليس يجري عصرنا كسائر الاعصار .



خلال ألف سنة

اراجيف واساطير

اما منافسة الشيخين ابي العلاء وداعي الدعاة فان دلتني على شيء فتدلني على ان الرجلين فرسا رهان ، يجريان لغاية واحدة . كلاهما باطني ينتهي الى قمة الدعوة ، ويعتصم بالعقل وحده ، ولم يكتب داعي الدعاة الى ابي العلاء الا رغبة منه في ادراك سره ، لان الباطنيين مولعون بالاسرار . . . وليس فيما كتب داعي الدعاة الى ابي العلاء ما يدل على انه يناهضه ، ولا على انه يبحث عن حقيقة دينه ، فالمقصود هو ادراك السر الذي ذاع امره واوهم ابو العلاء انه عنده ولا يبوح به .

وما رأيت ابا نصر بن ابي عمران ـ داعي الدعاة ـ الا مبجلاً ومعظماً لأبي العلاء ، عارفاً سره كما يجب ، فهو

يقول : « والدليل على كونه – اي ابي العلاء – ناظر المعادة ، بدقيق النظر الذي لا يكاد يجري معه جارٍ في ميدانه ، سلوكه في المسلك الذي سلكه في الزهد ، وقصده شظف العيش وتعوضه عن لذيذ الطعام بالكريه ، وعن لين اللباس بالخشن ، وتعففه عن ان يجعل جوفه للحيوان مدفناً ، او ان يذوق من درها لبناً ، وان يستطعم من طعـــام استكدت عليه في حرثه وانشائه . وليست هذه الطريقة الا طريقة من يعتقد انه اذا آلمها ، ونال نيـلا منها ، استوفى جزاء فعله بها . ومن كانت هذه نصبته في سلامة البهيمة العجماء منه ، فكيف في ايثار سلامة الانسان الناطق العاقل من يده ولسانه . »

ثم تجري الرسالة الاولى جري الند في مخاطبة الند ، بل سؤال « من يتوكأ على عصا العقل » .

هذا ما ورد في رسالة داعي الدعاة الاولى . اما رسالته الثالثة ، وهي الاخيرة ، فلم يجب عليها ابو العلاء لانه كما ذكر لداعي الدعاة في رسالته الاخيرة : « واني لاعجز اذا اضطجعت عن القعود ، فربما استعنت بانسان فاذا همّ باعانتي وبسط يديه لينهضني ، اضطربت عظامي ، لانهن عاريات من كسوة كانت عليهن ، فعرّتهن منها الاوقات المتمادية . وانما عنيت ما كان

عليهن من لحم . »

لم يجب عليها ابو العلاء لانه مات ، واليك ما يعنينا مما جاء فيها : « ما فاتحت الشيخ ، احسن الله توفيقه ، بالقول الا مفاتحة متاكر ، مؤثر لان يخفي من اين جاءه السؤال ، فيكون الجواب باسترسال ورفض حشمة ، وحذف تكلف الخطاب بسيدنا ، والرئيس ، وما يجري هذا المجرى ، اذ كان حكم ما تتجارى فيه موجباً ان لا يتخلله شيء من زخارف الدنيا ، ولانني اعتقد ان سيدي ، بالحقيقة ، من تستقل دون يده يدي اخذاً منه للدنيا ، او تمتار نفسي من نفسه استفادة من معالم الاخرى .

« فلا ادري كيف انعكست الحال ، حتى صار الشيخ ، ادام الله تأييده ، يخاطبني بسيدنا ، والرئيس ، ولست مفضلاً عنه في دنيا ولا دين ، بل شادّ اليه راحلتي لاستفادة ، ان وردت موردها ، او صادفت نهلاً او علاًّ منها ، قابلتها بالشكر لنعمته ، والاسجال على نفسي بسيادته .

« وبعد فاني اعلمه ، ادام الله سلامته ، انني شققت الارض بطنها وظهرها من اقصى دياري الى مصر ، وشاهدت الناس بين رجلين : اما منتحلاً لشريعة صبا اليها ، ولهج بها الى الحد

الذي ان قيل له من اخبار شرعه ، ان فيلاً طار ، او جملاً باض ، لما قابله الا بالقبول والتصديق ، ولكان يكفّر من يرى غير رأيه فيه ، ويسفهه ويلعنه .

« فالعقل عند من هذه سبيله في مهواة ومضيعة ، فليس يكاد ينبعث لان يعلم ان هذه الشريعة التي ينتحلها لم يطوق طوقها ، ولم يسور سوارها الا بعد لموع نور العقل منه .

« او منتحلاً للعقل يقول : « انه حجة الله تعالى على عباده » مبطلاً لجميع ما الناس فيه ، مستخفاً باوضاع الشرائع معترفاً مع ذلك بوجوب المساعدة عليها ، وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ، ولجاماً على رؤوس المجرمين المجازفين ، لا على انها ذخيرة العقبى ، او منجاة في الديار الاخرى .

« فلما رمت بي المرامي الى ديار الشام ومصر ، سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضل في الادب والعلم ، قد اتفقت عليه الاقاويل ، ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفي امره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهباً ، ويتبعه في تقاسيم الظنون سبباً . وحضرت مجلساً جليلاً اجري فيه ذكره ، فقال الحاضرون فيه غثاً وسميناً ، فحفظته بالغيب وقلت : ان المعلوم من صلابته في زهده يحميه من الظنة

والريب . وقام في نفسي ان عنده من حقائق دين الله سراً ، قد اسبل عليه من التقية ستراً ، وامراً تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضاً . ولما سمعت البيت :

غدوت مريض العقل والدين فالقني

لتعلم انباء الامور الصحائح

وثقت من خلدي فيما حدست عهوده وقلت : ان لساناً يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقاً . . . للسان « صامت » عنده كل « ناطق » . . . فقصدته قصد موسى للطور اقتبس نارا . . . فادليت دلوي بالمسألة « الخفية » التي سألت . . . »

ثم يعتذر الداعي عن كل ما سلف في رسائله ويختم هذه الرسالة بقوله : « وقبل وبعد ، فانا اعتذر عن سر له ، ادام الله سلامته ، اذيته ، وزمان منه بالقراءة والاجابة شغلته ، لانني ، من حيث ما نفعته ، ضررته ، والله تعالى يعلم اني ما قصدت به غير الاستفادة من علمه والاغتراف من بحره والسلام . »

ولست ادري كيف يحسب مثل هذا الكلام تهجماً على قدس الشيخ ، وان يقال ان داعي الدعاة امر باحضاره الى حلب ، ولما علم ابو العلاء انه يحمل للقتل او الاسلام ، سم نفسه فمات .

هذه اولى الاراجيف ، فداعي الدعاة كما تلمح من مخاطبته ابا العلاء يعلم انه يخاطب استاذاً او زميلاً على الاقل ، وقد خاطبه بالمصطلحات والتعابير الفاطمية ، واعتذر له عن ازعاجه اياه بالرد عليه . اما قول داعي الدعـاة ان الناس مختلفون في دين ابي العلاء فهو يقول حقاً ولهذا كتب اليه ، ولما علم انه من « الجماعة » تركه وبالغ في تعظيمه والاعتذار اليه . اما الاخرون فاسمع كيف يخاطبونه :

كلب عوى بمعرة النعمان
لما خلا من ربقة الايمان
امعرة النعمان ما انجبت اذ
اخرجت منك معرة العميان

ومن ارجافهم حول ذكائه حكوا أن اثنين تكلما امامه شيئاً كثيراً بلسان اذربيجان فأعاد ابو العلاء على اللفظ بعينه من غير ان يخرم منه حرفاً ، ولم ينقص ولم يزد . وروى بعض طلبة ابي العلاء ان جاراً له اعجمياً غاب عن المعرة ، وحضر رجل من بلده يبحث عنه ، فوجده غائباً ، ولم يمكنه المقام فأشار عليه ابو العلاء ان يذكر حاجته ، فجعل الرجل يتكلم بالفارسية وابو العلاء مصغ اليه ، ولم يكن يعرفها ، الى

ان فرغ من كلامه ومضى الرجل . وقدم جاره الفارسي الغائب فجعل ابو العلاء يردد عليه ما سمعه بلفظه ، والرجل يستغيث ويلطم ، الى ان فرغ من الحديث . وسئل عن حاله ، فأخبر بموت ابيه واخوته ، وجماعة من اهله .

قلت : ولو كان مات جميع من في بلده كان الخبر اضخم واروع . وقد رووا اخباراً كثيرة مثل هذه لا حاجة الى اثباتها .

ومن الاساطير المعزوة اليه واحدة رويت عن الغزالي عن يوسف بن علي بأرض الهركار انه قال : دخلت معرة النعمان ، وقد وشى وزير محمود بن صالح اليه بان المعري زنديق لا يرى افساد الصور ، ويزعم ان الرسالة – اي النبوة – تحصل بصفاء العقل . فأمر محمود بحمله اليه من المعرة ، وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم ابو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال : يا ابن اخي ، قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فان منعناك عجزنا ، وان اسلمناك كان عاراً علينا عند ذوي الذمام ، ويركب تنوخ الذل والعار .

فقال ابو العلاء : هوّن عليك يا عم ، ولا بأس عليك ،

فلي سلطان يذب عني . ثم قام فاغتسل ، وصلى الى نصف الليل ثم قال لغلامه : انظر الى المريخ اين هو .

فقال الغلام : في منزلة كذا . فقال : زنه ، واضرب تحته وتداً ، وشد في رجلي خيطاً واربطه الى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الازل ، يا علة العلل ، يا صانع المخلوقات ، وموجد الموجودات . انا في عزك الذي لا يرام ، وكنفك الذي لا يضام ، الضيوف الضيوف . الوزير الوزير . ثم ذكر كلمات لا تفهم ، واذا بهدة عظيمة . فسأل عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين . وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ ، فقد وقع الحمام على الوزير .

قال يوسف بن علي : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعري فقال : زعموا انني زنديق . ثم قال : اكتب . واملى عليّ ابياتاً من قصيدة اولها :

استغفر الله في امني واوجالي

من غفلتي وتوالي سوء اعمالي

ومن عناكب الاساطير المنسوجة ايضاً حول الشيخ هذان

الحلمان :

الاول : روى القفطي عن القاضي ابي عمرو بن عبد الله الكرجي ، انه كان وهو طالب يقع في دين ابي العلاء ، فرأى فيما يرى النائم كأنه في مسجد ، وكأن على صفة فيه رجلا شيخاً ضريراً بادناً ، والى جانبه غلام يشبه ان يكون قائده ، قال القاضي : وكنت واقفاً تحت الصفة في نفر من الناس ، وهذا الشيخ يتكلم كلاماً لم افهمه ، ثم التفت الي وقال : ما حملك على الوقيعة في ديني ، وما يدريك لعل الله غفر لي . قال : فاستحيت منه وسألت عنه ، فقيل هو ابو العلاء . فلما اصبحت اقلعت عن النيل منه ، واستغفرت الله لي وله :

الثاني : رواه غرس النعمة عن غلام سماه ابا غالب ، قال : وهو من اهل الخير والصلاح ، وله فقه ودين ، فلما ورد الينا الخبر بموت ابي العلاء تذاكرنا ما كان له من كفر والحاد ، فأتينا من ذلك على شيء كثير ، والغلام يسمع ، فلما كان الغد اقبل الينا يحدثنا : انه رأى فيما يرى النائم شيخاً مكفوفاً على عاتقيه حيتان ، رأساهما الى فخذيه ، فهما ترفعان رأسيهما الى وجهه ، فتقطعان منه قطعاً تزدردانها ، والشيخ

يصيح ويستغيث ، فسأل عنه ، فقيل : هو ابو العلاء المعري الملحد .

وحكاية اخرى سمعناها ونحن صبيان لا ادري الى من تسند ، قال الراوي : صعد ابو العلاء الى جبل قرب المعرة يعرف اليوم بجبل « الزاوية » ، واخذ يصيح : هوذا جبل أعلى من الطور ، ورجل أعظم من موسى ، فكلمني يا من كلمت موسى . وفعل ذلك ثلاثاً ، ولما يجبه احد . فانحدر عن الجبل وهو يردد :

لقد اسمعت لو ناديت حياً

ولكن لا حياة لمن تنادي

وحكاية اخرى رواها المرحوم احمد تيمور باشا في كتابه « ابو العلاء المعري » ص ١٣ قال :

وقبره معروف الى اليوم اي سنة ١٣٢٧ بالمعرة ولأهلها اعتقاد كبير فيه ، ويزعمون ان الماء اذا بيّت في قارورة عند قبره ، وشربه في الغد صبي به حبسة في لسانه ، او بلادة في ذهنه ، زال ذلك عنه ببركة ابي العلاء .

اقول : اما انا فحين زرت المعرة وسئلت عن سبب مجيئي اليها فاجبت زيارة قبر ابي العلاء ، سأل احد المعريين رجلا

آخر منها وكلاهما من عوامّها : منو ابو العلاء ؟ فأجابه : واحد كان مثل عنتر والزناتي خليفه . . .

رحم الله الشيخ الامام ، فما يرجّف الناس ، ولا يحوكون الاساطير الا حول شخوص النوابغ .

شاعر العقل الفاطمي

طلق ابو العلاء الدنيا الثلاث فكان عمله بدعة في الاسلام . مسح يده من جميع ملذاتها فعاش عيشة الحبساء المنفردين في الصوامع ، معدّياً عما استشاه منها حين اطراها بقوله :

ويعجبني عيش الذين ترهبوا

سوى اكلهم كد النفوس الشحائح

وعلى هذا نساك الفاطميين اليوم ، فمال الوقف لا يأكله فاطميّ زمّيت ، فهو في نظرهم مثل مال الحكام . وعندهم : حلالك تعبك ، بعرق جبينك تأكل خبزك . هم يحصرون الحلال في ثلاثة : اجر الفاعل والزارع والفلاح ، فاحد مشايخهم الاتقياء — الشيخ محمد صالح ، من جرمانا ، غوطة الشام — كان يوزع غلة اراضيه على فقراء الملة ، ويعيش من

ثمن السلال والحوص التي كان يصنعها هو ويبيعها في دمشق . فلم يمد يده الى حاصلاته لانه لم يتعب في استثمارها .

وقد رأيت في الفصل المعقود تحت عنوان : مذهب ابي العلاء ، ان الشيخ ينصح « الاخ » ان يتقيأ ما اكل اذا عرف انه مال ظالم . وهذا ما يفعلونه اليوم ، فيتجنبون الحكام ويبتعدون عنهم ، ويرفضون عطاياهم — كما فعل ابو العلاء قبلهم . ان « الاجاويد » منهم يستنكرون استئجار اوقاف الحكومات ، ولا يأكلون عند حاكم ، او من اعتقدوا انه مغتصب مال الآخرين . وامتناعهم عن أكل حاصلات الاراضي المغتصبة يعرفه اقل الناس اختباراً لهم ، فهم لا يأكلون من غلة تلك الاراضي ولو بالثمن .

وما لنا نبعد الى الغوطة لنحدثك عن الشيخ محمد صالح ، ولندع ذكر « المتنزهة » اخوان المعري في خلوات البياضة ، فضالتنا التي ننشدها قريبة من عاليه . في ضيعة « معصريته » رجال يلقبونهم في الشوف بالجوِيِّدين الزرق ، فهؤلاء الرجال لا يأخذون اعاشة من الحكومة في وقتنا الحاضر ، ولا يشربون ماء من احدى القرى المجاورة لهم لان اهلها لا جوِيِّدين منهم .

وفي عاصمة الشوف — بعقلين — سيدة فاضلة لم تكن

تستحل الاكل من مال ولدها لانه موظف ، فكانت تستبدل المال بمال آخر من عند رجل تثق بدينه لتستحل الأكل . ولم تأكل من ثمار ارض شراها ولدها ، بل تختار ذلك من ثمار العقارات الموروثة لانها حلال ، وكانت تعيش مع بنيها واحفادها وهي منقطعة عنهم فيما يمس المذهب .

وهذا ابو العلاء يقول لابن القارح في رسالة الغفران عن دنانيره التي سرقت : « وهذه ، ولا ريب ، من دنانير مصر ، لم تجيء من عند السوق ، ولكن من عند الملوك . »

لسنا نقول هذا لنزعم لك ان ابا العلاء درزي ، او لنقول انه كالطبقة السامية من عقلاء هذه الطائفة الذين بلغوا ما يسمونه ختام الدين . فمن قال ان ابا العلاء مثل هؤلاء فهو كالقائل مثلاً : نابوليون بونابرت والبابا لاون الثالث كانا يستعطان مثل مارون عبود .

ان طلائع هذا الزهد العلائي قد بدت مع المعز جد الحاكم فتخلى عن الكرمي مدة سنة لابنه العزيز بالله ، ثم نما هذا الزهد واستفحل امره مع الحاكم قبل « الغيبة » بقليل . اما ابو العلاء فتنسك وسأل الاخوان ان يكونوا له شيعة في طريقته ، فوضع لهم في « اللزوميات » الاصول والمبادىء

الزهدية ، ولما قربت ساعته خاطبهم بقوله :

ازول وليس في الخلاّق شك
فلا تبكوا علي ولا تبكّوا
خذوا سيري فهن لكم صلاح
وصلوا في حياتكم وزكوا

اذا قابلنا بين قول ابي العلاء هذا وبين ما يفعله اجاويد الدروز اليوم رأينا انهم يحملون جزعاً ولا ينتحبون على فقيد مهما عز وغلا ، كما فعل الامير السيد حين فقد ابنه ، وسيأتيك خبر هذا . ومن كلام الدروز في هذا الصدد : اذا اصبتم بعزيز فعليكم ان تصبروا لئلا تفقدوا الاجر ، فمن جزع من قضاء الله عبر به القضاء ولزمه الاثم . ومن صبر على القضاء خف عنه المصاب ولزمه الاجر . واذا كان لا بد من عبور القضاء فالاولى ان نصبر ، ابتغاء للثواب وحذر غضب الله . ومن كلماتهم المأثورة : من يبك على رأس ميت فكأنه يحارب الله .

واني لارى ابا العلاء يلمح بقوله : فلا تبكوا علي ولا تبكّوا ، الى النبي الكريم ، لانه بكى واستبكى ، ومن قرأ رسالتي المعري الى داعي الدعاة يرى ترجيحاً لظننا هذا .

ان ابا العلاء يحث على الزهد ويحرص على كتمان « السر »

وعلى كل ما اراه بارزاً في المذهب الفاطمي اليوم . واراه يتكلم كمن له سلطان ، فلا يستند الى تقليد ولا الى اسناد لانه لا يتجاوز تخوم منطقة العقل . والعقل في المذهب هو « الامام » المعصوم . والعقل الفاطمي هو العلة الاولى وضابط الكون . ولئن كان لا بد للعقل من شيخ فأبو العلاء هو شيخ مشايخ العقل ، واول من جهر معلناً امامته المطلقة وامر باتباع وحيه وهداه .

من عادة المؤمنين ان يكونوا عمل فبركة ، اي نمطاً واحداً . وابو العلاء مؤمن ولكنه ليس من نمط اخوانه تماماً . ففي كتبه زاد للاخوان والذرية ، ووصيته لهم تنحصر باتقاء الله وعمل الخير ، وتطهير النفس من المعاصي ، والابتعاد عن اللذات التي ينبذها طلاب الكمال .

ليست الفضيلة عند ارسطو طبيعة ، فالطبيعي قوى واستعدادات والفضيلة تكتسب بمعاونة الطبيعة ، اي ان تطبع النفس على حالات معينة . الفضيلة عنده تتعلم كما يتعلم كل فن ، باتيان أفعال مطابقة لكمال ذلك الفن . ومن توهم ان المثابرة غير لازمة للحصول على الكمال فمثله كمثل المريض الذي يريد الشفاء ولا يستعمل وسائله . وهذا ما قصده ابو العلاء من سيرته ونسكه .

لا استغرب ان يظهر الجزع والخوف اذا تصور نفسه ذاهبة بذهاب جسده . وحقه ان يتف «واشجباه» وان يحزنه قول ذلك الزائر له : وعلى مَ حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة؟

كان ابو العلاء خائفاً على نفسه ، حريصاً على تنقيتها ويحزنه وجودها في الجسم الذي هو الد اعدائها . كان يظن دائماً انه مقصر فيذم نفسه ويقول انه ابو النزول لا ابو العلاء . وفاطميو اليوم يقولون : من يظن بنفسه الخير فهو معدوم الخير . ويحكون عن «الشيخ الفاضل» احد كبار عقال وادي التيم ، وهو من ذوي العمامة المكورة ، انه ظل خائفاً على نفسه ، ولم يثق بخلاصها ونجاتها من احابيل الجسد ، الا قبل موته ببضع دقائق فقال مخاطباً : روحي يا مباركة ، الآن امنت عليك .

ويقول الفاطميون بضرورة التوبة قبل العجز ، ويسمون توبة الشيخ توبة فزع ، وكذلك قال ابو العلاء : فليتني ابهت لشأني قبل شيب المسائح . طرق ابو العلاء هذا الموضوع كثيراً وحث على طاعة الله وترك المعاصي والانصراف عن الدنيا قبل ان تنصرف هي عنا . اما «الرحمة» عندهم فلا تعطى

الا مستحقيها ، وليست دينونة كما يتوهم بعضنا ولكنها شهادة تؤدي ومعاذ الله ان تكون زوراً . والقصد منها حث الاحياء على طلب الكمال والتجمل بمكارم الاخلاق . والسكوت عنها رفض لها . وقد لا يرحم الاخ اخاه ان شك بفضله .

انهم لا يؤمنون بالاستسقاء وغير ذلك من طلبات البشر ، وعندهم كلمة مأثورة : لا تنقص من ملكه تعالى معصية عاص ، ولا تزيد في ملكه طاعة مطيع ، وانما هي اعمالكم تردّ اليكم . وابو العلاء ، كما مر بنا ، يزدري ويهزأ بمن يتصورون ان المطر لم ينزل لانهم عصوا الله فيستسقونه بتضرعاتهم وصلواتهم .

يقول ابو العلاء ، كما مر بك : لا طوقاً ابث ولا جبرا ، والانسان عند الفاطميين مسيّر ومخيّر : مخير فيما يحده العقل ، ومسير في الامور التي لا قبل له بها . وهذا كله محصور بكلمتهم المأثورة : امر تبين رشده فاتبعوه ، وامر تبين غيه فاجتنبوه ، وامر اشكل عليكم فالى الله ردوه .

ومرتكب الكبائر عندهم ، كالقاتل والزاني ، لا يسلم « الحكمة » ، وان تاب توبة نصوحاً يسلم شرحها فقط .

اذا رأيت عند ابي العلاء تناقضاً فاعلم ان ذلك تقيّة

واستتار ، فهو لا يريد ، كما قال ، ان يسخط جيله كل الاسخاط فترك لهم ما يتلهون به عنه ، ولكنه في كل حال لا يجحد مذهبه ولا يعترف بغيره صراحـة . ومن الجنون المطبق ان نخال ابا العلاء معتقداً بالفناء ، ثم يتنسك هذا النسك الصارم . اجل ان عقله لا يسلّم بما صارت اليه حمدونة ورفيقتها توفيق السوداء ، ولكنه يعتقد بخلود غير خلودنا ، ولهذا روى لنـا ما خلقته مخيلته من خبر هاتين المرأتين ، واليكه كما ورد في رسالة الغفران :

« ويخلو – اي ابن القارح – بحوريتين من الحور العين ، فاذا بهره ما يراه من الجمال قال : اعزز علي بهلاك الكـندي ، اني لاذكر بكما قوله :

كدأبك من ام الحويرث قبلها
وجارتها ام الرباب بماسل

اذا قـامتا تضوّع المسك منهما
نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وان صاحبتاه منكما ، لا كرامة لهما ولا نعمة ، لجلسـة معكما بمقدار دقيقة من دقائق الدنيا خـير من ملك بني آكل المرار وبني النصر بالحيرة وآل جفنة ملوك الشام .

ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابهـا ويقول : ان امرأ القيس لمسكين مسكين ، تحترق عظامه في السعير ، وانا اتمثل بقوله :

كأن المدام وصوب الغمام
وريح الخزامى ونشر القطر
يعلّ بـه برد انيابهـا
اذا غرد الطائر المستحر

فتستغرب احـداهمـا ضحكاً فيقول : ممّ تضحكين ؟ فتقول : فرحاً بتفضل الله . أتدري من انا يا علي بن منصور ؟ فيقول : انت من حور الجنان اللواتي خلقهن الله جزاء للمتقين ، وقال فيكن كأنهن الياقوت والمرجـان . فتقول : انا كذلك بانعام الله العظيم ، على اني كنت في الدار العاجلة اعرف بحمدونـة ، واسكن في باب العراق بحلب ، وابي صاحب رحى ، وتزوجني رجل يبيع السقط فطلقني لرائحـة كرهها من فيّ . وكنت من اقبح نساء حلب ، فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا ، وتوفرت على العبادة ، واكلت من مغزلي ومردني فصيرني ذلك الى ما ترى .

وتقول الاخرى : اتـدري من انا يا علي بن منصور ؟ انا

توفيق السوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد ، على زمان ابي منصور محمد بن علي الخازن . وكنت اخرج الكتب الى النسّاخ . فيقول : لا اله الا الله ! لقد كنت سوداء ، فصرت انصع من الكافور . فتقول : اتعجب من هذا ، والشاعر يقول لبعض المخلوقين :

لو ان من نوره مثقال خردلة

في السود كلهم لابيضت السود »

أيتوحد ويتنسك هذا النسك الصارم من لا يرجو حسن العقبى ؟

يقول ارسطو : « المنفرد اما بهيمة واما اله . » ويأبى ادبنا وادب كل ذي عقل حتى من الد اعداء ابي العلاء ان نعده بهيمة . ويأبى توحيد المعري المنزه ان نسميه الهاً ولو بالمعنى اليوناني . فشيخنا يرى تطهير النفس بالنسك ويعتقد بخلودها . كان الشيخ مهتاجاً قبل ان بلغ ذروة الحلم و«الجودة» ، فعنف الناس فظن دارسوه انه متشائم . لا تشاؤم ولا تفاؤل ، ما هناك الا توبيخ وتبكيت التماساً للصلاح . اراد الاصلاح فصك الانسانية صكة اعمى ...

تعرّض ابو العلاء لجميع الشؤون الاجتماعية حتى تقسيم الثروة

فسخط على اهل عصره . وقد كان توزيع الثروة ولا يزال ، حيث عاش ابو العلاء ، غير عادل ، اما الخمرة ، مشكلة المشاكل ، فهو ابغض الناس لها ، والفاطميون اليوم من مذهبه هذا ، انهم يتحوبون من عصرها وبيعها وقبض اثمانها ، وقد ذهبوا الى ابعد من ذلك فحرموا التدخين والنسعط ، ولكنهم اباحوا القهوة ويؤثرون التعفف عنها .

اما العقل الفاطمي فهو : الله هو معل العلة الاولى التي هي العقل ، والعقل هو مبدع الكون ومدبره ، فالخالق منزه مستريح . والعقل الانساني عندهم نوعان : جسماني وروحاني . فالجسماني هو العقل المعلوم ، والروحاني هو عقل ارسطو . الجسماني فعّال ومنفعل ، يتأثر ويؤثر ، وهو يمثل العقل الروحاني في فضائله واعماله الحسنى .

و « الصدق » رأس الايمان ، وهو يمثل العقل ، اما الشيطان فيمثل الكذب . ويغلو الفاطميون في الصدق غلواً كبيراً ، فاذا قال « جويّد » منهم كلمة فعليه ان يقوم بها ، واذا نوى فلا بد من التنفيذ ، و كلمة « طلع قول » مشهورة عنهم .

حكي ان احدهم قال لاهله انه ذاهب لزيارة احد الاخوان في احدى القرى المجاورة – بيصور – فما خرج من باب بيته

حتى رأى اخاه الذي يقصد زيارته قدام الباب . دعاه الى بيته وذهب هو الى زيارته كما عزم ، ثم رجع اليه وقص عليه الخبر . ومثل هذه حكايات كثيرة تروى ينفذ بها « القول » تنفيذاً لا هوادة فيه ولا رفق .

اما الصوم عندهم فصومان : جسدي ويكون في التعفف عن المآكل والمشارب ، ونفسي وهو ترك المعاصي والمآثم ، والصوم الاخير اجل واسمى عند ابي العلاء وعندهم . ان الجسد قميص يبلى . ينزع ثم يؤخذ غيره ، والنفوس هي هي لا تزيد ولا تنقص . اما « الحساب » فيدان الشخص باعتباره كائناً خالداً ، ويحاسب على جميع ما مر به من اطوار . اما الثواب فيكون بالملذات الروحية لا الجسدية . ففي الملكوت الفاطمي تنتقى النفوس وتتطهر بدورانها . وفي تنقلها من قميص الى قميص – اي من جسد الى جسد – قد تلاقي عناء وجهداً ، وفي هذا يقول ابو العلاء ، ولا بأس من اعادته هنا :

يقولون ان الجسم تنقل روحه
الى غيره حتى يهذبها الصقل
فعش وادعاً وارفق بنفسك طالباً
فان حسام الهند ينهكه الصقل

وتمر النفس في دورانها بحالات مختلفة ، وتظل كذلك حتى تتطهر — ان كانت صالحة ، وبعد هذا التطهير يكون « الدهر » وهو عالم لا قوي فيه ولا ضعيف . يسود فيه العدل ، ونظمه كلها واحدة وحكومته كذلك ، ولا عذاب ولا شقاء . وقد اشار ابو العلاء الى هذا بقوله :

ما احسن الارض لو كانت بغير اذى

ونحن فيها لذكر الله سكان

اما النفوس الشريرة فتظل معذبة بجميع انواع العذابات المعروفة ، والعذاب الاكبر هو عذاب الضمير ، وعذاب الندم على ما فات ، لانها لم تنتفع من ادوارها الماضية . اما النفوس الصالحة فتكتسب الجمال ، والعمر التام ، وراحة الضمير ، والابتعاد عن الامراض والمصائب . فما هنالك الا غبطة روحية في « دهر » لا نهاية له . يتغير النظام الارضي ويحل محله نظام الهي ويحكمه « الامام » الممثل بالعقل .

فمن اقوالهم : الفكرة الالهية ابتدأت مع ابرهيم كالحبة ، وفي عهد المسيح أزهرت ، وفي عهد محمد نضجت ، ونحن قطفناها .

ليس للخلود عندهم محل معين ، البقاء هنا كما قلنا ، وما

الجسد الا وسيلة لاظهار القوى الروحية . الخير يمثل العقل ، وبعمل الخير تنفذ ارادة العقل الذي هو « الامام » وبهذا يكتسب الاجر . وقد قال في هذا ابو العلاء قولا لا التباس فيه :

سأتبع من يدعو الى « الخير » جاهداً

وارحل عنها ما « امامي » سوى عقلي

والشجاعة عندهم رأس الفضائل ، فالعاقل يكون شجاعاً صادقاً متعففاً لا يهاب احداً ولا يخاف غير الخالق . وليس بعاقل من لم يتصف بالحلم وسعة الصدر والترفع عن بذيء الكلام . وهم يتحوبون من ذكر القرد ولا يعتقدون بالجن والشياطين ، وقد اشار الى هذا شاعر العقل كما رأيت . اما الزواج فهم في سنته كما وصّى ابو العلاء . ليس للفقير ان يتزوج وان تزوج فليقلل من الحروسين ما استطاع ، والزواج للنسل فقط . ولا يجمع الفاطمي بين ثنتين ، واذا طلقها فلا تعود . والطلاق من حقوق الاثنين ، ولا يكون الا لعلة عظيمة ، وان طلقها ظالماً فلها نصف ما يملك حتى القميص الذي على جلده . ومن يتعفف يكن من الملائكة المقربين . اما ملائكتهم فغير مجنحة ، وثالوثهم مؤلف من العقل والنفس

والكلمة .

ان للعقال الفاطميين خطة ضيقة جداً ، وما خطة هؤلاء الا خطة المعري نفسها . انزواء وانفراد وترويض النفس ، وتذليل لها بالتقشف والحرمان من الملذات ، حتى روى لي منهم شيخ موقر ان احدهم عاش مع زوجته اربعين سنة كان يعاملها في اثنائها كأخت ، ولا يكون هذا الا بعد التراضي ، فالنساء في المذهب الفاطمي كالرجال سواء بسواء ، وتعففهم ونسكهم وزهدهم عملاً بالآية : ادخلوا من الباب الضيق .

ان المذهب يجيز هذا الزهد للاخوان ، فللعاقل ان يختار اسلوباً معيناً لحياته ، بشرط الا يتنافى مع المبدأ العام ، وهو الا يقاطع حيث يقتضي ان يواصل . فحفظ الاخوان واجب ، وللاخ على اخيه حق بكل ما هو حلال . وتنحصر صفات العاقل عندهم في عفة اليد والقلب واللسان .

وللعلم عندهم اجل شأن ، فهم يتبرأون من الجهال ، فكأنهم يعملون بالكلمة اليونانية : اطلب المعرفة لأجل المعرفة وهي تجلب لك السعادة .

ان كل « اسرار » ابي العلاء التي قال انه « يستر دونها ويجمجم » هي هنا . و« السر » مختوم به على الاخوان الفاطميين

الموحدين ، فهم كما قال الشاعر في العشاق ، واظنه السهروردي :

« بالسر » ان باحوا تباح دماؤهم

وكذا دماء البائحين تباح

ما شبهت بعض دارسي ابي العلاء الا بالجرذان التي في قبو الخمر عندي . يقرطون الفلّين والشمع الاحمر ، ومتى هرقت الخمرة المعتقة هربوا مولين الادبار . . .

بعد اربعمائة سنة

وما اعود الى الدنيا وقد زعموا
ان الزمان بمثلي سوف يحكيني
وارحمتا لشبيبي في حوادثه
ينكيه ما كان في الايام ينكيني

المعري

اذا شبهنا المذهب الفاطمي بالكرة كان المعري قطبها الشمالي والسيد عبدالله قطبها الجنوبي . واذا تكلمنا بلغة الباطنيين كان المعري جناحها الايمن والسيد عبدالله جناحها الايسر . والامير السيد صاحب المقام الشهير ـ في عبيه ، لبنان ـ هو ابن عم المعري الحكيم الخالد .

جاء التنوخيون لبنان من معرة النعمان ، والدروز يسمونها

معرة الاخوان ، جاؤوا الشوف يحملون معهم المذهب فحلوا بين اخوان لهم . وساهموا في محاربة الحملة الصليبية وصدها عن الثغور ، فنالوا حظوة عند السلاطين وحكموا اقليماً خطيراً من لبنان . كانوا باطنيين نحلة فصاروا فاطميين مذهباً . وقد عززوا هذا المذهب في الشوف حيث لا تزال لهم آثار خالدة وذكريات طيبة .

والامير السيد عبد الله هو اكبر ائمة الطائفة الدرزية ، ومصلح « المذهب » ، ومنظم اصوله وقواعده .

انجبت الاسرة التنوخية رجالا عظاماً في عصرهم ، وكان لها في كل ميدان ابطال ، فكان هذا البيت العريق بيت علم وادب وشعر وسياسة وفضيلة وزهد وتقوى واحسان وحلم ورحمة وفروسية . واشتهر منه رجال في الفنون كالموسيقى والصياغة والخط وعلم النجوم والطب والشرع والفقه والحديث والفرائض . اما واسطة هذا العقد الثمين فالامير السيد عبد الله الدالة عليه آثاره القائمة في عبيه ، فهي مزار الناس من فاطميين مؤمنين بفضل السيد ، ومن معجبين بتلك الشخصية التي لعبت اسمى الادوار في العصور الاستبدادية المظلمة ، كما يتضح من ترجمته هذه المكتوبة بقلم فاطمي اديب ، من « مستهي

الحكمة » :

« الامير جمال الدين عبد الله بن سليمان . . . بن تنوخ ابن قحطان بن عوف بن النعمان بن المنذر المعروف بابن ماء السماء . ولد في عبيه لبنان ، ونشأ كما نشأ اترابه الامراء في ذلك الزمن محباً للفروسية والصيد والقنص . ولما بلغ اشده مال الى الدين ، ولم يتصل بامرائه حتى هجر سلوكه السابق وتحلى بحلية المتقين واتسم بسمة اهل الدين ، من تمسك بالتقوى والصدق والوفاء وترفع عن الشهوات والشبهات وهجر الخمرة وسائر المنكرات .

وعكف على علوم زمانه فدرسها وتبحر في علمي الشرع واللسان وتضلع من مذهب « التوحيد » تضلعاً بذ فيه السابق واللاحق وشرحه شرحاً وافياً محللاً مشكلاته وغوامضه . ثم عنّ له اصلاح النظام الاجتماعي الاقطاعي المخالف للمذهب فنادى بالمساواة المطلقة بين الناس وان لا ميزة الا بالعلم والعمل . فثار به العامة ونقم عليه الخاصة فهاجر الى دمشق كعبة العلم ومحج العلماء في عصره . وهنالك تفرغ بكليته للعلم والتعليم ، وناظر الائمة والعلماء فغلبهم وبهرهم بسعة علمه وتقواه وفضله حتى لقب بالسيد وعرف بذلك . مكث في دمشق بضع سنوات نبه فيها

ذكره ، واصبحت داره محجة للعلماء والكبراء وتجاوزت شهرته دمشق الى لبنان فعقد امراء البلاد وكبراؤها وشيوخها اجتماعاً عاماً اقروا فيه ايفاد نخبة منهم الى دمشق ليتوسلوا الى اميرهم المصلح بالعودة اليهم خاضعين لما يفرضه عليهم من اصلاح ، فعاد الامير السيد الى بلاده المحتاجة الى علمه وفضله فاحتفل بقدمه السكان ايما احتفال ، وتقاطرت الوفود من سائر الطبقات الى داره في عبيه ، ولازمه الكثيرون طلباً للعلم . فزهد في الدنيا على بسطة عيشه وسعة يده وتقشف تقشفاً عظيماً . كان يقضي نهاره صائماً معلماً وليله مصلياً متهجداً . كان جواداً كريماً على زائريه ومريديه ، تحفل موائده بطيبات المآكل ولكنه حرمها على نفسه الطاهرة . واوجب على اتباعه معاملة الناس حسب اعمالهم الخيرية ، فأهل التقوى والعلم مقدمون على سواهم ضارباً عرض الحائط بالانساب والميزات الاجتماعية . فرض العلم على الجنسين الذكور والاناث ، وحدد النسل ، واباح الزواج للنسل المحدد فقط وما خرج عنه يحسب ضرباً من الزنى . وحرم على الفقير المعدم الزواج رحمة بالاولاد ورفعاً للمستوى . واوجب على الآباء حين يوصون بتراثهم لابنائهم ان يفضلوا الخيّرين من

الابناء على سواهم وان يحرموا الاشرار منهم . واجاز للاب الوصية لمن شاء من اخوانه الاتقياء اذا لم يسعد بأبناء خيّرين . ثم فرض الصدقات وكان كل عام يملأ خرجاً من المال يطوف به القرى موزعاً على المحتاجين والمعدمين آخـذاً من الاغنياء مبالغ معينة لاجل الصدقة فيعود الى عيبه وخرجه مملوء كما كان .

كان يقول للناس : من كان محتاجاً فليأخذ . ومن كان مستطيعاً فليضع . ويدير ظهره لكيلا يرى من اخـذ ومن اعطى . ومن كلامه المأثور في هذا الصدد : لو ان الغني بذل والفقير قنع لم يكن في البلاد فقير .

فجع الامير السيد بولده الوحيد الامير عبـد الخالق ليلة عرسه . رفسته فرسه فقضت عليه . ولما استبطأ الوالد عودة ولده نزل الى الاسطبل فرأى وحيده ميتاً فعاد وامر بنصب الموائـد للمدعوين ، فبسطت واكلوا وقاموا بواجب التهنئـة والتبريك بالزفاف . فاجابهم السيد قائلا : آجركم الله بالعريس . وحظر عليهم الندب والبكاء والنواح لانه مخـالف للدين ، فما الابناء الا ودائع عند الآباء وكل مستودع امـين . فمتى شاء الله استرد وديعته ، وعلينا تسليمها بطيبة نفس وسرور . ان

ارواحنا مودعة في هذه الاجساد المنحلة يأخذها الله متى شاء .

« ايها الناس ، لا فوت من الموت فلكم عند الله من الخير ما تكسبون ومن الشر ما تفعلون ، ونحن واياكم في قبضة ملك الممالك ، فطوبى لمن قبل اوامر الله واطاعه ، وجعل مدته من الدهر ساعة .

« ايها الناظرون الي ، أتظنون ان صبري على فقد ولدي جهالة ، او ترك تعرضي للقضاء ضلالة ، او اني نسيت علمه وفضله ، وطاعته وصبره ؟[1] » ودفن وحيده ولم يذرف عليه عبرة واحدة .

كان الامير السيد غنياً واسع الاقطاعات يملك قرى عديدة وقفها جميعها على اعمال البر . وعمّ احسانه جميع مواطنيه من سائر الطوائف فجعل لعائلة سركيس المسيحية في عبيه غلالا معينة كل عام ، لهم ولذريتهم من بعدهم ما دامت اوقافه . ووصيته المشهورة تنص على ذلك نصاً صريحاً .

ولهذا قال فيه المؤرخ ابن سباط : انه كان محبوباً من

[1] ارجع الى خطبته هذه في تاريخ الامير حيدر ص ٦٠٤ طبعة مصر لمنيف .

جميع الاسباط كما ورد في تاريخ اعيان لبنان للشدياق .

اوجب السيد على اخوانه الترفع عن اكل الحرام والشبهات والرياء ومال الظلمة واوقافهم وغلالهم ، وحرم اكل غلال الاراضي المغتصبة ونهى عن قبول اموال الحكام ومن يتصل بهم .

تآليفه : شرح الامير المذهبي . وكتاب لغوي مسمى سفينة اللغة العربية . » انتهى .

اما وفاة الامير السيد فكانت – كما روى الامير حيدر في تاريخه المشهور – في اليوم السابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٨٨٤ هجرية فأقام تلاميذه رئيساً يرشدهم بعده ويشير عليهم ابن عمه الامير سيف الدين ابي بكر ابن سيف الدين زنكي .
وكان لفقد الامير رجة عظيمة في البلاد ، واجتمع يوم مأتمه ودفنه امم لا تحصى من جميع البلدان .

بين شيخين

كان شيخي الاول الذي نشأت في حجره كالذي ذكره داعي الدعاة في رسالته الثالثة الى ابي العلاء : ان قيل له في اخبار شرعه ان فيلاً طار ، او جملاً باض ، لما قابله الا بالقبول والتصديق .

كان ، رحمه الله ، كثيراً ما يقرئني في كتاب « ميزان الزمان » تأليف الانبا نيرامبرك اليسوعي ، وخصوصاً في الفصول التي تتحدث عن جهنم ، والايام التي تسبق القيامة فالدينونة العامة ، فأقلق واضطرب ويركبني في الليل كابوس يتمطى بصلبه ويردف اعجازاً ، وينوء بكلكل . . . فأستيقظ مرتجفاً كالورقة ، واحياناً باكياً .

كثيراً ما كانت تتوسل المرحومة والدتي الى عمها شيخي

ليكف عن اقرائي في هـذا الكتـاب الذي تفزع قراءته الكبار ، كما سمعتها تقول . اما جدي فـلم يكن يرعوي ، وكان يجيبها : العلم في الصغر كالنقش في الحجر . فهو يريد ان يوطد بنيان الدين ومخافة الله في صدر خليفته العتيد . . .

قرأنا مرة : انه في سنـة الف وخمسماية وسبع وثلاثـين امطر الله على مدينة بولونيا حجارة ثقل كل واحد منها ينيف على اربعة ارطال ونصف . ويؤيّد صاحب ميزان الزمان هذا الزعم بقوله : فلم يأت حزقيال النبي باخبار واهية بقوله : انه في انتهاء العالم تقع حجارة ثقيلة جداً . ويقول صاحب الجليان ان ثقل كل حجر يوازي قناطير كثيرة . ثم يقول : خبرونا انه في بلاد سيتيا سمعت رعود مفزعة مات من صوتهـا خلق كثير ، فماذا يكون ضجيج العواصف الأخيرة وشـدة ارهابها حينما يريد الله ان يلاشي هذا العالم ؟

فسألته وعيناي مغرورقتان : متى تكون نهـاية العالم ؟ فأجابني : تؤلف ولا تؤلفان ، ومعنى ذلك لا تبلغ الالفـين بعد المسيح حتى يكون الكتاب قد تم .

فقلت : اذاً تكون النهاية على ايامنا ؟ فنظر الي بعينين تفيضـان حناناً وحباً وقال : لا تخف ، ان تلك الساعـة

لا يعلمها احد ولا الابن الا الآب . هكذا يقول الرب يسوع في انجيله الطاهر .

وانصرفت الى اللعب ولكن تصور تلك الحجارة لم يبرح مخيلتي ، كنت انتظر تساقطها بين ساعة واخرى ، واخاف ان انهض في الصباح على خبر القيامة . . .

وكنا نقرأ مرة عن عذاب الهالكين فبلغنا هذه العبارة : ولهذا قال القديس نيقولاوس نيصص : انه لو يضطرم كل الحطب الذي في العالم ويصير جميعه ناراً واحدة متقدة لم تكن قوتها توازي شرارة واحدة من نار جهنم .

فقلت له بسذاجة الاطفال : واذا خلص الحطب الا تنطفي نار جهنم ؟

فأجابني : قال المخلص : ان دودهم لا يموت ونارهم لا تطفا .

وبلغنا مرة خبراً مزعجاً جداً اليك نصه : ذكر الانبا كانتبراني انه كان في نواحي مملكة النمسا جندي باسل ، كان محباً ركوب الخيل وسباقها ، ومتمرغاً في حياة اللذات الدنسة ، فمات موتاً شقياً ، وكانت له امرأة تقية عابدة سالكة في طريق القداسة فاختطفت بالروح . فرأت زوجها كأنه عائش

بعد في جسده . وبهذه الرؤيا عرفت شقاء حاله لانها ابصرت حوله جماً غفيراً من الشياطين . وقد امرهم اركونهم بان يلبسوا ضيفهم الجديد ثوباً من حديد داخله اشواك حديدية مسنونة وحسك حاد . ثم امرهم بعد ذلك ان يضعوا على رأسه خوذة حديدية وان يسمروها بمسمار طويل ينفذ من رأسه الى رجليه .

فقلت : اوف !

فقال : اقرأ قدامك . فأذعنت وقرأت خوفاً من العصا :

« ثم يعلقوا على عنقه ترساً حديدياً ثقيلاً يرضض عظامه . فتمم الشياطين اوامر اركونهم بتدقيق واسراع . فحينئذ قال لهم الاركون هكذا :

ان هذا الرجل كان يحب لهو الركض على الخيل ، والحمام ، واستنشاق الروايح الذكية ، والرقاد على الفرش الناعمة ، والتنعم في اللذات اللحمية ، فقدموا له قليلاً مما يناسب ذلك من الملذات المستعملة ها هنا . فامسكته حينئذ الشياطين وادخلوه في وسط لهيب متقد . ثم بعدما احترق هناك مدة اضجعوه على فراش من حديد محمى ، عليه ضفدعة طول الفراش ، بأعين مرعبة جداً ، فامتدت عليه تلك الضفدعة

واعتنقته اعتناقاً شديداً .

فهذا ما رأته امرأته الفاضلة . فلنرهبن اذاً العدل الالهي ولنتحققن غاية التحقيق ان الذي اخطأنا به هنا باعظم استلذاذ نعاقب عليه هناك باشد تعذيب . »

وكنت اتنهد بعد كل قراءة واصعّد الزفرات كمن تسلق عقبة عمودية دون اقل استراحة . كان جدي يتلذذ بهذه الاخبار ثم ينصرف بعدها الى صلاته ، فيصلي صلاة حارة ، وكثيراً ما كانت تدمع عيناه ، وتارة يسمع المارة بكاءه .

وقرأنا مرة عن انواع العذاب الجهنمي : ان العقل يتعذب بأفكار مؤلمة محزنة جداً ، فلا يجد حينئذ ارسطو لذة في حكمته ، ولا سنيكا في فلسفته ، ولا جالينوس في طبه ، ولا غيرهم من العلماء في علومهم ومعارفهم .

وقد جاء في الاخبار انه ظهر ، لاسقف من اساقفة باريس ، معلم ما ، كان قد هلك في جهنم ، فسأله الاسقف : هل بقي لك شيء من العلوم في جهنم ؟

فأجابه المعلم الشقي : اني لست اعرف الآن سوى ثلاثة اشياء : اولها انه قد حتم علي بالهلاك الابدي ، ثانيها انه لا رجوع بهذا الحكم ، ثالثها اني خسرت مشاهدة الله الى الابد

لاجل ملذات الجسد .

وقرأنا مرة عن الدينونة العامة وهو رأي للقديس توما اللاهوتي : ما اكثر ما كان مجد اسكندر الكبير ويوليوس قيصر في هذه الحياة ، ولكن كيف حصلا على هذا الشرف ؟ أليس بالجور والظلم ، وسفك دماء اناس ابرياء ؟ فهذه الافعال التي مدحت في دهور كثيرة سوف تهان وتشنع في اليوم الاخير ، قصاصاً من امتداحها الماضي . وهكذا يصير بالآباء الذين يولدون ثانية ويحيون بأشخاص اولادهم . فيدانون ويشجبون ثانية بمقدار امثالهم الرديئة التي قدموها لاولادهم .

وقد قال ايضاً القديس المتقدم ذكره : « انه من اجل ان الجسد يبقى في الارض بعد الموت فيجب ان يدان كل انسان ثانية في الدينونة العامة ، لان اجساداً كثيرة من اجساد الابرار دفنت في بطون الوحوش الضارية ، وقد حرم الدفن كثير منها . وبخلاف ذلك اجساد كثيرة من اجساد الاشرار دفنت باكرام جزيل في قبور مفخمة . فهذا الانعكاس يصلحه الله في ذلك اليوم — يوم الدينونة العامة . فالخاطىء الذي وضع جسده في قبر مزخرف يشاهده حينئذ في حال الاهانة والشقاء والعذاب . اما البار الذي لم يدفن بعد موته لكن

قبر في جوف الغربان او بطون الوحوش فانه يشاهد جسده مكللا بالنور [١] . »

فقلت لجدي : وكيف يرجع الجسد بعدما اكلته الغربان والوحوش ؟

فأجابني بكل ما فيه من قوى الايمان والرجاء والمحبة : الذي قال لها كوني فكانت قادر على كل شيء .

قال هذا وفتح شحيمته يصلي ، واخذت انا شحيمتي . كنا نصلي معاً جوقين : بيت مني وبيت منه ، وكل ذلك باللغة السريانية ، ولا فرق بيننا الا ان صوته رخيم جهوري كأنه الارغن . وكان بعد كل صلاة يعرّب لي ما اعتقد انني لم افهمه من شعر مار افرام ومار يعقوب . ثم نختم النهار بالتسبيح والتهليل والتلبية وكل ذلك باللغة السريانية :

شوبحو وهودرو وقولوسو

لابوهو ايتيوا غنيزو

١ الاخبار منقولة بالحرف عن كتاب ميزان الزمان طبعة سنة ١٨٦٣ .

وتدور الايام ، وما اسرع دورانها مخاذاً بي وانا ابو على الستين ، يستوقفني في طريق الحياة شيخ آخر غير شيخ عين كفاع ، هو شيخ المعرة المناوح لشيخ عين كفاع . الشيخان توأمان ، والتوأمان لا يلتقيان ، كما قال شاعر الانكليز كبلنغ .

ان شيخي هذا بضد ذاك ، لا يصدق شيئاً مما يصدقه جدي ، « ينتحل العقل ، كما قال داعي الدعاة ايضاً ، ويزعم انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطلاً لجميع ما الناس فيه ، مستخفاً بأوضاع الشرائع » . وهو القائل :

اثنان اهل الارض ، ذو عقل بلا

دين ، وآخر ديّن لا « عقل » له

انه لا يعني ان الديّن لا عقل له ، ولكنه يريد ان يقول ، وهذا الذي يفهم من كلامه في رسالة الغفران : ان الديّن يهمل عقله ولا يحكمه في دينه ومعتقده فيمضي على آثار السلف .

لست احدثك عن آراء شيخي الجديد فقد مرت بك كلها ، ولا يجوز ان نقلل من قدرك فندلك على الفرق ما بين شيخيّ . انه لواضح . ولكني اريد ان تفهم عني ان شيخيّ مختلفان

متفقان ، متفقان سيرة وسريرة ونسكاً ، ومختلفان كل الاختلاف في الطريق التي تؤدي الى الطاحون . فجدي لا يعرف الا ان المسيح قال : انا هو الطريق والحق والحياة . وابو العلاء يعتقد ما عرفت .

كلا الشيخين ناسك متقشف يخاف ربه . وكلاهما علمني : ان اسمى ما يسعى اليه المرء هو ان يتقي الله ويعمل الخير ، لا طمعاً بالنعيم ولا خوفاً من الجحيم .

احسن الله جزاء شيخيّ ، وعسى ان يجمعني بهما – ان صح للاموات وشك التقاء – كما قال شيخي اليوم ، وان يجملني في آخر العمر بما جملهما به من خير وصدق ومحبة .

كان شيخي الاول لاهوتياً قديماً في عصره . لا يحيد قيد شعرة عن الانطوين ، والفونس ليكوري ، وتوما الاكويني ، وعما اقرته واثبتته وتقره وتثبته روما العظمى من تعاليم ، ولا يصغي الا الى دعوة القلب .

وكان شيخي الثاني لاحقاً بابناء الاكروبول لا يسمع الا صوت عقله . اما انا فواقف على مفرق الطرق انتظر ساعة النعمة ، وارقب فكاك المشاكل . . .

عنزة ولو طارت

هذا ما سيقوله اولو العناد الذين تأبى عليهم غطرستهم ان يذعنوا للحجج والبراهين والادلة . سوف يتمسكون ، كما تمسكوا بالامس ، بأبيات قالها المعري تقيّة – والتقية موصى بها في المذهب الفاطمي .

فيا اصدقائي !

اذا لم تشاؤوا ان يكون المعري فاطمياً قلنا لكم ان الفاطميين علائيون . فشيخ المعرة لم يقل الشعر حباً بالنظم ، كما ظننتم ، ولكنه يؤيد مذهباً ، ويضع اصول طريقة في شعره ، وهو ابعد اثراً في الحكمة والدين منه في الشعر والادب .

وقبل وبعد فلست ازعم ، ايها القارىء ، الا انني سلمتك

مصباحاً يضيء سبيلك الى دهاليز هذا الاعمى البصير .
غفر الله لنا وله .

عاليه — عين كفاع ، ١٩٤٤ .

تصحيح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٧	٤	التر خي	التراخي
٢٧	١٨	مفا قة	مفارقة
٣٠	٤	يزيجنا	يزجينا
٥٩	٣	بالطع	بالطبع
٦١	٤	للتقوى	بالتقوى
٩٧	١٤	ـألوا	اسألوا
٢٢٧	٧	،	:
٢٣١	١	ناظر المادة	ناظرا لمادة
٢٥٤	١٣	الحروسين	« المحروسين »

فهرس

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع
الاتحاد في ٢٣ آذار ١٩٤٥ .



